وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أكلي محند أولحاج – البويرة –

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم: العلوم الإنسانية

تخصص: تاريخ

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الوسيط (الإسلامي)

موسومة بـ:

الحياة الثقافية في المغرب الأوسط في عهد الدولة الحمّادية (405-547هـ / 1014-1152م)

إعداد الطالبتين:

- كريمة عليوات
- أمينة لطرش

إشراف الأستاذ:

- رشيد مريخي

لجنة المناقشة:

الأستاذة: حفيظة بو تغماس	رئيسا
الأستاذ: رشيد مريخي	مشرفا
الأستاذ: طاهر سبع	مقررا

السنة الجامعية: 1435-1436هـ / 2014-2015م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان:

نحمد الله عز وجل الذي مهد لنا طريق النجاح راجين منه العفو والمغفرة والصلاة والسلام على رسولنا الكريم المصطفى صلى الله عليه وسلم.

نتوجه بالشكر والعرفان إلى كل من ساعدنا من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا البحث معنويا بالنصح والتوجيه، وماديا بمصادر لتوثيق البحث ونخص بالتقدير والامتنان الأستاذ **مريخي رشيد** الذي تفضل بالإشراف على هذا العمل برعايته وتشجيعه وتوجيهه الدائم دون أن ننسى الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الذين تحملوا مشقة قراءة هذا البحث وتصويبه.

وكل الأساتذة بمعهد العلوم الإنسانية بجامعة البويرة الذين غرسوا في أنفسنا حب البحث بتشجيعهم المتواصل لنا على إتمام هذا العمل.

إهداء:

إلى من غمرتني بحبها وحنانها وعطفها، إلى من كانت عيناها دائما في حراستي، إلى من أعطتني و حرمت نفسها، إلى أغلى إنسان في الوجود، أمي العزيزة "**لويزة**"

إلى من شجعني على مواصلة دراستي وأنفق علي بسخاء ولم يحرمني من شيء أبي الغالي "**السعيد**". أطال الله في عمرهما

إلى من شاركني عبء الدراسة الجامعية من بدايتها، ووقف إلى جانبي خطوة بخطوة، إلى من كانت فرحتي فرحته وحزني حزنه، إلى شريك حياتي وزوجي العزيز "**سفيان**".

إلى فلذة كبدي وروحي ابني الحبيب "**إسلام**".

إلى كل من أنار حياتي أخي أمين، وأخواتي دليلة، سارة، ليندة، سلسبيل وأزواجهم زهير، محمد، عبد الوهاب وأعمامي وعماتي وخالاتي وأخوالي، وجداتي وأجدادي.

إلى كل عائلة زوجي أبي رابح، أمي لويزة، أخواتي نبيلة، صبرينة، لطيفة، جويدة، نعيمة، نورة، أمال، هديل، وإخوتي مروان نسيم، وليد.

إلى صديقاتي نصيرة وأمينة، نعيمة، سامية، صبرينة، سمرة، وكل من يعرفني من قريب أو بعيد.

كريمة

إهداء:

إلى كل من يؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبالجزائر وطنا، أهدي ثمرة جهدي وعملي المتواضع.

إلى منبع الرعاية والحنان والقلب الدافئ التي لا يمكن للكلمات أن توفي حقها أمي الحبيبة"عائشة".

إلى منبع المحبة ومثل الخلق الذي اهتديت به، رمز القوة والتضحية والدي العزيز"إسماعيل".

إلى أساس العنقود الأسري جدي وجدتي.

إلى كل نقطة حنان من بحر الحياة والحب إخوتي: عبد الله يوسف، بلال، أسامة، وعبد النور.

إلى زهرة بيتنا وآخر العنقود سارة.

إلى زوجي مالك وعائلته.

إلى الحب والصفاء أخوالي وخالاتي، أعمامي وعماتي وأزواجهم وأولادهم.

إلى نعم العون والصداقة كريمة عليوات وزوجها وابنهما إسلام.

إلى من جمعتني بهم مظلة الأخوة وتاج المحبة والاحترام والأيام الجامعية:

سامية، نعيمة، صبرينة، مسعودة، وسمراء. . . وكل من يعرفني.

إلى كل خريجي قسم التاريخ بالبويرة لهذه السنة.

أمينة

مقدمة

مقدمة:

بدأت حركة الفتوحات في القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، وكانت أسمى غايات الفاتحين نشر الدعوة الإسلامية بين أهلها، فأبلوا في سبيل تحقيق ذلك بلاءً حسنا، وسعوا جادّين من أجل فتح قلوبهم لتقّبل دعوة الإسلام، وبذلك تم إنشاء بعض المساجد والكتاتيب التي اتُّخذت كمنابر لنشر الثقافة العربية الإسلامية وذلك انسجاما مع طبيعة الفتح الإسلامي الذي كان في جوهره فتحا علميا وعقائديا، إلّا أن الوقت والظروف لم تمكّن هؤلاء الفاتحين من تحقيق أغراضهم ولم تكلّل مجهوداتهم بالنجاح إلاّ بعد عناءٍ طويل واستقر الفتح الإسلامي بإفريقية و المغرب في أواخر القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، ومطلع القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وتحّول أهلها إلى الإسلام.

ومنذ ذلك الحين وإلى غاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي شهد المغرب الإسلامي تغّيرات وتطّورات في شتى مجالات الحياة، وشهد انتعاشا ملحوظا في المجال الاقتصادي والثقافي واستوطنته عناصر سكانية جديدة بما تحمله معها من أفكار وعادات وتقاليد، وحركة البناء والتعمير هي الأخرى شهدت المغرب الإسلامي كله، بدايتها كانت بالمغرب الأدنى وبناء مدينة القيروان، يليه المغرب الأوسط الذي وجدت به العديد من المراكز الثقافية والتي كان لها دور كبير في العلم والمعرفة، ونفس الشيء بالنسبة للمغرب الأقصى.

ومن بين الدول التي اشتهرت في المغرب الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة؛ دولة بني حماد، وقد كانت ذو حركة علمية نشيطة جسّدها العلماء وبعض الأمراء الذين سخّروا أنفسهم لخدمة الدين والبحث في مختلف العلوم.

ولعل اهتمام المؤّرخين والباحثين بالشقّ ين السياسي والعسكري على حساب الدور الثقافي الذي قامت به الدولة الحّمادية في تاريخ المغرب الإسلامي عامة والأوسط خاصة، دفعنا إلى اختيار موضوعنا هذا الموسوم بـ:"**الحياة الثقافية في المغرب الأوسط بدولة بني حمّاد (405-**

547هـ/1014-1152م)"، وهي الفترة الزمنية التي سادت فيها الدولة الحّمادية بالمغرب الأوسط، بعد انفصالها عن الدولة الزيرية بإفريقية، هاته الأخيرة التي انفصلت هي الأخرى عن الدولة الفاطمية بعد انتقالها لمصر.

كما أن موضوع الثقافة في الدولة الحّمادية يعرف شيئا من الفراغ، ونحن كطلبة وباحثين لاحظنا أثناء المرحلة الجامعية نقصا كبيرا في الدراسات التي تناولت موضوع الثقافة الحّمادية ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، إضافة إلى شعورنا بقيمة وأهّمية الموضوع، فجاءت فكرة اختيارنا لهذا الموضوع، واختيار هذه الدولة لا يعني أّنها كانت متمّيزة وشهرتها كبيرة في المغرب الأوسط، بل لأنها كانت في تقديرنا أحسن مثال يعكس التطّور الثقافي والحضاري الذي كان سائدا في المغرب الأوسط في تلك الفترة.

وغايتنا من وراء هذه الدراسة هي دراسة الدولة الحّمادية دراسة ثقافية وإبراز الجانب الثقافي الذي كان سائدا.

ولمعالجة موضوع بحثنا طرحنا الإشكالية التالية: **ما هي الصورة التي كانت عليها الحياة الثقافية بمختلف أنواعها بالمغرب الأوسط خلال العهد الحّمادي في القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين؟**

وللإجابة عن هذه الإشكالية وجب علينا الإجابة عن بعض التساؤلات الفرعية، من أهّمها:

- بماذا تميزت الأوضاع السياسية والاجتماعية لبلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين؟
- هل يمكن إسناد المظاهر الفكرية والحضارية للدولة الحّمادية إلى العامل الاقتصادي أم السياسي؟
- ما هي العوامل التي ساعدت على بقاء الحركة العلمية والثقافية؟

- هل أسهم الأمراء الحّماديون في انتعاش وازدهار هذه النهضة الفكرية؟
- ما هي أبرز معالم النهضة الفكرية في العاصمتين القلعة وبجاية؟
- ما هي العلوم التي لقيت اهتماما من قبل علماء المغرب الأوسط مقارنة ببقية العلوم الأخرى؟
- من هم أشهر العلماء الذين خدموا حقل العلوم وساهموا في تطورها خلال العهد الحّمادي؟
- بماذا تميزت المباني العمرانية على اختلاف أنواعها في العهد الحّمادي؟
- ما هي أشهر الفنون التي عرفها الحّماديون وبرعوا فيها؟

وبناءً على المادّة العلمية التي توفرت لدينا، قسّمنا بحثنا هذا إلى خطة وهي كالتالي: مقدمة، أربعة فصول- كل فصل قسمناه إلى ثلاث مباحث- و خاتمة.

ففي **المقدمة**: وضّحنا أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وطرحنا الإشكالية وعرضنا أهم المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها، وأشرنا إلى المنهج المتبع، وأخيرا وليس آخرا الصعوبات التي واجهتنا.

أما **الفصل الأول**: فكان مدخلا إلى الموضوع بعنوان مدخل إلى قيام الدولة الحّمادية، قسمناه إلى ثلاث مباحث، وتطرقنا فيه للتاريخ السياسي للمغرب الأوسط في العهد الفاطمي والصنهاجي بفرعيه الزيري والحمادي، ومنهجية البحث هي التي فرضت علينا هذا، لأنه من غير المنطقي أن نتحدث عن الدولة الحّمادية مباشرة، وتطّرقنا في هذا الفصل أيضا إلى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب الأوسط خلال العهد الصّنهاجي، وكذا المؤثرات في الحياة الثقافية للدولة الحمادية، حتى نتمكن من الدخول في صلب الموضوع.

وقد تعرضنا في **الفصل الثاني**: إلى التعليم ومؤسساته، إذ تطرقنا في المبحث الأول إلى دور الحكام في تنشيط الحياة العلمية والثقافية بداية من حماد، أما المبحث الثاني تحدثنا فيه عن

التعليم، ومراحله، نظامه، الرحلة العلمية، وفائدتها، وكذا الإجازة العلمية التي كانت من أهدافها، في حين خصصنا المبحث الثالث للمؤسسات الثقافية من زوايا، كتاتيب، مساجد ومكتبات.

ثم انتقلنا إلى **الفصل الثالث**: الذي تعرضنا فيه إلى الإنتاج العلمي والثقافي، إذ تناولنا في المبحث الأول المراكز الثقافية وخصصناه للقلعة-عاصمة بني حماد الأولى- وبجاية-عاصمة بني حماد الثانية- وذلك من حيث الأهمية الجغرافية والإستراتيجية، أما المبحث الثاني فتناولنا فيه العلوم النقلية واللسانية من فقه وتفسير وحديث وتصوف، ولغة ونحو وشعر وأدب مع الإشارة إلى بعض العلماء الذين برزوا في هذه العلوم، في حين خصصنا المبحث الثالث للعلوم العقلية والاجتماعية من رياضيات وفرائض وطب وصيدلة وفلك وتاريخ وكذلك أشهر العلماء.

أما **الفصل الرابع**: فقد تحدثنا فيه عن الفنون والعمارة، وقد تناولنا في المبحث الأول العمران من عمارة دينية، مدنية وعسكرية وأعطينا نماذج لها كانت متواجدة في الدولة الحمادية سواء القلعة أو بجاية، وتحدثنا في المبحث الثاني عن الفن بأنواعه من زخرفة وهندسة معمارية، وبراعة الحّماديين في صناعة الزجاج، والتعدين والخزف والفخار وغيرها من الفنون التي عرفها الحّماديون لننتهي في المبحث الثالث إلى أثر هذه الحضارة سواءً من الناحية الثقافية والعلمية أو الفنية والمعمارية.

ثم ختمنا الموضوع **بخاتمة** بّينا فيها النتائج التي خلصنا إليها بعد هذه الدراسة، مرفقة بملاحق لتوضيح جوانب من الموضوع إقتبسناها من المراجع التي لها علاقة بالموضوع.

واعتمدنا في تناولنا لهذا الموضوع على المنهج التاريخي الوصفي، والمنهج التحليلي والمقارن لكونها أكثر ملائمة لدراسة البحوث التاريخية، وقد حرصنا على استخدام المنهج الوصفي الذي ساعدنا في وصف العاصمتين(القلعة وبجاية)، وكذلك استفدنا منه في عرض النصوص لاستغلالها في البحث، وبخصوص المنهج التحليلي فهو أساس البحث من حيث الكشف عن

الأبعاد الثقافية، الفكرية والعلمية لهذه الدولة وتحليلها ونقدها قبل صياغتها وعرضها؛ أما المنهج المقارن فاعتمدنا عليه في المقارنة بين المصادر وآراء المؤرخين.

ولكي نثري موضوع بحثنا اعتمدنا على مجموعة من المصادر والمراجع متفاوتة الاستفادة كان القليل منها معاصرا للدولة، وكان البعض الآخر ملّما بكثير من المعلومات، وكان بعضها حديثا استفدنا منه عند الرأي والترجيح، وقد تنوعت بين كتب التاريخ والتراجم والرحلة وكان أهم هذه المصادر:

عبد الرحمن ابن خلدون (808هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر في أجزائه 2-3-6-7، والذي كان أنيسنا طوال فترة البحث، فباعتباره "مغربي" مشهور بتخصصه في التاريخ البربري، إضافة إلى أنه زار بجاية، سكيكدة وتاهرت، والراجح أنه كتب معظم كتابه "العبر"، فضلا عن المقدمة في أرض المغرب الإسلامي، وعلى رأسها المغرب الأوسط.

ولم تكن فائدة هذا الكتاب محصورة بالنسبة لبحثنا على الصفحات التي كتبناها عن الدولة الحمادية، فالحق أن ما كتبه عن البربر بعامة، وعن دولة بني زيري والمرابطين والمّوحدين وهي الدول التي اتصلت حياتهم بحياة الحّماديين–على نحو ما- كان أيضا ذو فائدة كبيرة بالنسبة لبحثنا، هذا ونفس الشيء بالنسبة للمقدمة فقد استفدنا منها في ترتيب العلوم بالمغرب الإسلامي مقارنة بالمشرق، وكذا معرفة أهم الكتب المتداولة ببلاد المغرب الإسلامي، إضافة إلى الاطلاع على مناهج التعليم التي كانت سائدة بالمغرب والأندلس، وكذا طبيعة التأليف في العلوم الذي تميز بالاختصار والإيجاز، وكيف كان موقف ابن خلدون، هذا وتكمن أهمية هذا الكتاب في أن صاحبه ساهم هو الآخر في الحركة العلمية ببلاد المغرب تأليفا وتدريسا.

ويأتي **أبو الحسن الجزري** المعروف **بابن الأثير** (ت 733هـ) في كتابه **الكامل** (ج8-9-10-11) في درجة متوازنة مع ابن خلدون وإن كان لكل منهما خصائصه، فبالرغم من انتمائه

إلى بيئة غير مغربية، إلا أن سرده للمادة التاريخية بمختلف دقائقها أفادنا بشكل واسع في تغطية بعض النقص، حيث يعتبر ما كتبه ابن الأثير من أغزر المواد التي كتبت عن الدولة، ونلاحظ في كتابته أمرين: الأول: تجاهله لأميرين من أمراء الدولة البارزين ألا وهما المنصور بن الناصر بن علناس والعزيز بن المنصور، والثاني: اقتصاره على التاريخ السياسي للدولة، دون تعرضه لمظاهر الحضارة.

ومن المصادر ذات القيمة بالنسبة لهذا البحث **الجزء الثالث** من كتاب **أعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب** (776هـ)، وقد كان معاصرا لابن خلدون وابن الأثير، والذي سمحت له الفرصة بالاتصال المباشر بالمغرب الإسلامي، ونلاحظ بأنه أكثر من التحليل.

أما كتب التراجم فقد أفادتنا جدا من حيث معرفة الحياة الثقافية في الدولة الحّمادية في القلعة وبجاية، ومن بينها:

أبو العباس أحمد بن عبد الله الغبريني (644هـ) في كتابه **عنوان الدراية فيمن عرف من العاماء في المائة السابعة ببجاية**، ومن خلال هذا الكتاب استطعنا أن نبني صورة عن الحياة الثقافية والعلمية ببجاية والقلعة.

كما اعتمدنا بشكل مماثل على **عبد الله بن محمد بن أحمد** المعروف **بابن مريم** في كتابه الموسوم **بالبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، وفيه ترجم صاحبه لاثنين وثمانين ومائة من العلماء والأولياء الذين ولدوا بتلمسان أو عاشوا فيها أو انتسبوا إليها، كما تطرق لأسماء شيوخهم وتلامذتهم والكتب التي عرفت تداولا في عهدهم، وأورد لنا إشارات عن آثارهم الفكرية خاصة في مجال العلوم بكل أنواعها.

إضافة إلى كتاب **أحمد بابا التنبكتي** بعنوان **نيل الابتهاج في تطريز الديباج**، فكل هذه الكتب أفادتنا في معرفة المعالم الثقافية في القلعة وبجاية من خلال تراجم العلماء والفقهاء بالدولة

الحمادية، أو ترجمة علماء الدولة في العاصمتين (القلعة وبجاية)، مع ذكر اهتماماتهم بالعلم والعلماء في البلاط.

كما استندت دراستنا على مجموعة من المصادر الجغرافية والرحلّة، وكانت حافلة بمعلومات وحقائق أنارت لنا الطريق للكشف عن كثير من الجوانب، إضافة إلى أنها كانت لازمة الحضور ومن الضروري الاعتماد عليها، لأن التاريخ عبارة عن أحداث ووقائع تقع ضمن رقعة جغرافية معينة، فكانت هذه الكتب واصفة تزيد في التعريف، ورصد حركة المجتمع في بلاد المغرب الإسلامي، ولعل أبرزها:

كتاب صورة الأرض لابن حوقل النصيبي (ت بعد367هـ/977م) الذي زار المنطقة حوالي 330هـ/841م كان ذو أهمية بالغة، فزيادة على وصفه الدقيق للمغرب الأوسط فقد أمدنا بمعلومات هامة وانفرد في بعض أجزائه بروايات لم ترد في بعض المصادر الأخرى حتى كتب التاريخ العام، ولا ينافس كتاب ابن حوقل أهمية سوى مؤلف: **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبو عبيد الله البكري (ت628هـ/1230م)** إذ نقل لنا معلومات في غاية الأهمية رغم أنه لم يزر المنطقة، واعتبُر ذو أهمية تاريخية كبيرة نافست الكتب المتخصّصة نفسها من خلال دقّته واعتماده الكبير على محمد بن يوسف الورّاق المتوفي سنة363هـ/976م.

ولا يمكن لدارس تاريخ المغرب أن يستغني عن كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي** المتوفي548هـ/1154م الذي أمدنا بحقائق قّيمة. وبنفس الدرجة اعتمدنا على **ياقوت الحموي**(ت626هـ/1228م) في **معجم البلدان** بأجزائه الخمسة، واِستفدنا منه كثيرا في وصف مراكز المدن الحّمادية.

وإلى جانب هذه المصادر الأصلية وجدت مصنفات جغرافية أخرى، ورغم أنها لم تستق معظم أخبارها منها إلاّ أنها لا تقل شأنا عنها منها: كتاب **الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول**، ويرجّح بأنه كان للمراكشي الذي كان من كتاّب القرن السادس الهجري (توفي حوالي

588هـ) ورغم أنه ينقل كثيرا من أخباره عن البكري إلا أنه رصد لنا قسطا معتبرا من أحداث عصره ساعدتنا على رفع اللُبس عن بعض جوانب الدراسة، كما ِلستعنا بمؤلف **الحميري عبد المنعم (ت866هـ/1381م)** الموسوم بـ: **الروض المعطار في خبر الأقطار**.

ومن أجل التعامل مع هذه المصادر والمعلومات التي جاءت فيها لم يكن بوسعنا سوى الإطلاع على بعض المراجع المتخصّصة لتحليلها لبعض الحوادث التاريخية، وهي ذات قيمة لا تقل عن المصادر السابقة لارتكازها على البحث الأثري في خرائب القلعة-عاصمة الدولة الأولى- وفي بجاية-عاصمة الدولة الثانية- فكان كل من كتاب **عبد الحليم عويس** الموسوم **بدولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري** و**رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته**، و**إسماعيل العربي**: **دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية**، و**صالح يوسف بن قربة** في: **تاريخ مدينتي المسيلة وقلعة بني حماد في التاريخ الإسلامي** من إعطائنا صورة واضحة عن الحياة الفكرية للدولة الحمادية، وساعدتنا على فهم الهياكل التي اعتمدتها الدولة الحمادية في النهضة الفكرية في المغرب الأوسط.

كما اعتمدنا على بعض الكتب الجزئية، والتي كانت تبحث جانبا معينا من بينها: **مبارك الهلالي الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، و**عبد الرحمن الجيلالي** في: **تاريخ الجزائر العام**، و**عبد الحميد زغلول** في: **تاريخ المغرب العربي**، **الطاهر بونابي** و**جورج مارسيه** وغيرهم.

وللأمانة العلمية تجدر بنا الإشارة إلى أن هناك بعض الرسائل الجامعية ساعدتنا، ولو بجانب من الجوانب في الدولة الحمادية، كمذكرة الماجستير **لمحمد الشريف سيدي موسى** بعنوان **الحياة الفكرية في بجاية ما بين القرنين 7و10هـ/13و16م**، وأطروحة الدكتوراه **لمحمد بوشقيق** تحت عنوان "**تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين(14 و15م)**"، إضافة إلى بعض المقالات والمجلات.

وبهذا القدر ينتهي هذا العرض الملخّص للمصادر والمراجع ، وإن لم يأت ذكر مصادر ومراجع أخرى في هذا الحيز فإن ذلك لا يعني إغفالها وتجاهلها.

ومن الصعوبات التي واجهتنا أثناء أداء هذا العمل:

- صعوبة الحصول على المصادر والمراجع المتخصصة ومعظمها مفقود خاصة على مستوانا المحلي، وللأسف لم نتمكن من الاطلاع على عدة مصادر تخدم الموضوع.

- قلّة الدراسات المتخصصة في موضوع البحث إضافة إلى قلة المصادر التي خصت الموضوع بالدراسة، فأغلبها لرحالة اهتموا بالجوانب الاقتصادية أو لمؤرخين ركزوا على واقع الصراع وخلفياته بين قبيلتي صنهاجة وزناتة.

- غموض الجانب الثقافي والحضاري للدولة وتفرقه بين مصادر كثيرة، وهذا تطلب منا جهدا كبيرا مع ضرورة الرجوع إلى عشرات المصادر والمراجع من أجل الحصول على عدة أسطر قد تمت للموضوع بصلة.

الفصل الأول:

مدخل إلى قيام الدولة الحمّادية

- المبحث الأول: التاريخ السياسي للمغرب الأوسط في العهدين الفاطمي والصنهاجي
- المبحث الثاني: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الأوسط خلال العهد الصنهاجي
- المبحث الثالث: المؤثرات في الحياة الثقافية للمغرب الأوسط خلال العهد الحمّادي

المبحث الأول: التاريخ السياسي للمغرب الأوسط في العهدين الفاطمي والصنهاجي

1- التاريخ السياسي للمغرب الأوسط في العهد الفاطمي (منذ القيام إلى الانتقال لمصر):

أ- قيام الدولة الفاطمية:

- كتامة:

كان اسم هذه القبيلة معروفا لدى الإغريق، وقد ذكره بطليموس، كما كان معروفا لدى الرومان، واتخذ في عهدهم الشكل اللاتيني Ukulmani الذي عثر عليه منقوشا على بعض الآثار في المنطقة التي تمتد بين ميلة[1] وجيجل[2]، والمنطقة التي كانت تحتلها كتامة معروفة ومحددة بوضوح، فأراضي كتامة تحدها غربا بلاد زواوة[3]، لكن صلة كتامة بزواوة غير واضحة تماما فنحن نعرف أن زواوة كان حليفا سياسيا لكتامة عند بدء الدعوة الشيعية، ولكننا نجهل صلة القرابة والدم بينهما، وتمتّد المساحة التي كانت تشغلها كتامة في شرقي بلاد القبائل الصغرى بين سطيف وجيجل والقل[4]، وبين سلسلة جبال البابور وقسنطينة[5] ومدن كتامة الرئيسية وهي نقاوس[6]

1- ميلة: هي مدينة صغيرة بأقصى إفريقية بينها و بين بجاية ثلاثة أيام وبينها وبين سطيف يوم واحد. الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج5، تح: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ص224.

2- جيجل: مدينة على ضفة البحر بينها وبين بجاية الناصرية خمسون ميلا. الإدريسي أبو عبد الله محمد الشريف، **صفة المغرب و أرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تح: وطبع ليدن، 1866م، ص120.

3- زواوة: ذكر ابن خلدون أن زواوة من بطون البربر البتر و روى عن ابن حزم أن زواوة من كتامة، ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ج6، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967م، ص148.

4- القل: قرية عامرة كانت قديما مدينة صغيرة وأصبحت مرسى تبعد عن مدينة جيجل سبعون ميلا. الإدريسي، المصدر السابق، ص120.

5- قسنطينة: مدينة أزلية كبيرة آهلة ذات حصانة ومنّعة ليس يعرف أحسن منها. الحموي، المصدر السابق، ج9، ص334.

6- نقاوس: مدينة كبيرة عليها سور من حجارة قديمة أزلية وهي كثيرة الشجر. نفسه، ص94.

وتيجس وميلة وجيجل وتاهرت[1]، القل وقسنطينة أقدم مدن المغرب الأوسط.

وهذه المنطقة تسود فيها المرتفعات والهضاب وتحيط بها غابات وجبال وعرة قليلة المداخل، وتشكل نظاما طبيعيا للدفاع، ومعظم القرى الواقعة في أرض كتامة مبنية على قمة الجبال في مواقع يصعب حصارها ووصول العدو إليها، وسكان هذه المنطقة يحرصون على امتلاك السلاح[2].

وهذه الاعتبارات تفسر لنا انتشار دعوة الشيعة بين كتامة الذين التجأ إليهم أبو عبد الله الشيعي[3] في حوالي 277هـ دون أن يمتد إليها سلطان الأغالبة، إضافة إلى صلابة هذه القبيلة التي انتزعت دفة الحكم من يد العرب الفاتحين لتضعه في يد البربر لأول مرة في التاريخ، وقد توجت انتصاراتها في المغرب بالاستيلاء على مصر[4] وبناء القاهرة، وقبيلة كتامة انقرضت في وقت مبكر جدا بدليل قول الشريف الإدريسي أنه لم يبق في عصره من هذه القبيلة سوى ما يقرب من أربعة آلاف رجل: "...وكانوا قبل ذلك عددا كبيرا وقبائل وشعوبا"[5] ويرجع السبب الرئيسي في اختفاء اسم كتامة من هذه البلاد إلى أن هذه القبيلة كانت تمد الفاطميين بجزء مهم من الجيوش التي كانوا يعتمدون عليها في فتوحاتهم، كما كان الكتاميون يشكلون العمود الفقري للإدارة في

1- تاهرت: عاصمة الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط وهي هضبة بين ثلاث أنهار أحدثها عبد الرحمان بن رستم. ابن عذارى أبو العباس احمد بن محمد المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج1، تح: ليفي بروفنسال وج س كولان، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ص194.

2- إسماعيل العربي، **دولة بني حماد ملوك القلعة و بجاية**، ش و ن ت، الجزائر، 1980م، ص37.

3- أبو عبد الله الشيعي: مؤسس الدولة الفاطمية، اعتنق تعاليم الشيعة وتشبع بحب آل البيت النبوي، أعلن ولائه للأئمة العلويين الإسماعيلية وهو من الرجال الدُهاة الجديرين بما يصنعون، واحد من رجالات العلم القائمين بنقض الدول وإقامة الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال. تقي الدين أبو العباس احمد بن محمد المقريزي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، ج1، تح: جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1996م ، ص43.

4- مصر: اسمها باليونانية مقدونيا وكانت منازل الفراعنة فتحها عمرو بن العاص أيام عمر بن الخطاب. الحموي، المصدر السابق، ج5، ص، ص137، 138.

5- الإدريسي، المصدر السابق، ص99.

القيروان[1] ثم في مصر والشام[2]، بعد ذلك انغمسوا في حياة القصور واستبدلوا وطنهم بأوطان أخرى، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن كثيرا من بطون القبيلة التي بقيت في المغرب الأوسط إثر رحيل العبيديين إلى مصر، كانت تنفر من الانتساب إلى كتامة[3] بسبب الاضطهاد الذي كانت تتعرض له هذه القبيلة نتيجة لما عرف عنها من التعلق بمذهب الشيعة ومناصرتها له.

ب - مراحلها:

لقد مرت الخلافة الفاطمية مثل باقي الدويلات الإسلامية التي قامت في بلاد المغرب الإسلامي بمرحلتين أساسيتين هما: مرحلة نشر الدعوة، ومرحلة التكوين.

- مرحلة نشر الدعوة:

التشّيع كما ذكر "الشهرستاني" مبدأ: "يقوم على حب آل البيت من عترة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقضي بحصر الإمامة بعده في علي بن أبي طالب بالنص ثم في أبنائه وأحفاده"[4] والفئة التي والت عليها وناصرته سميت بالشيعة لكونها شايعته وبايعته على الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأصبحت الإمامة والولاية فيما بعد من أكبر المسائل الخلافية بين المسلمين[5].

وحسب رواية ابن خلدون أن الشيعة انقسمت إلى فرقتين فرقة تقول بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وأخرى ترى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وتقول بإمام مستور حي يعمل سرا لإقامة دولة، وهي الفرقة التي سميت الإسماعيلية، وإليها ينسب الفاطميون الذين قاموا بالمغرب

1- القيروان: بالفارسية كارّاوان وهي مدينة عظيمة بافريقية وليس بالمغرب أجلّ منها وقد مصّوت في الإسلام في أيام معاوية. الحموي، المصدر السابق، ج3، ص،ص420،421.

2- الشام: هي أرض بفلسطين. نفسه،ص، ص55،56.

3- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص38

4- أبو الفتح بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، ج1، تح: محمد السيد الكيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1980م، ص278.

5- ابن خلدون، **المقدمة**، تح: علي عبد الواحد وافي، د ت ، ص297.

الإسلامي[1]، وقد اختارت هذه الفرقة من سلمية[2] مركزا لها لجلب الأنصار، والمؤيدين ومنطلقا لدعاتها في أنحاء العالم الإسلام.

واختيار الشيعة الإسماعيلية لبلاد المغرب الإسلامي لنشر أفكارها لم يكن بمحض الصدفة، بدليل قول جعفر الصادق لداعييه اللذين أرسلها إلى المغرب: "إن المغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها ومهداها حتى يجيء صاحب البذر"[3]، فالأول يدعى "أبو سفيان" نزل عند موضع يقال له "تالا"[4]، والثاني يدعى "الحلواني" نزل بموقع يقال له "الناظور"[5]، وقد اعتنق مذهبهما عدد من أهل مرماجنة[6] والأربس، كتامة ونفرة[7] وسماتة، ولقد بدا واضحا تأثير أبي عبد الله الشيعي في مجتمع كتامة، بما أظهره من أخلاق سامية وحسن معاملة، ما جعل الناس على اختلاف طبقاتهم ينضوون جماعات في دعوته،[8] معتمدا على سياسة اللين ومحاربة بعض السلوكات القبيحة وهدفه من وراء ذلك هو إصلاح المجتمع وكسب قلوب العامة.

وقد ذهب "المقريزي" إلى توضيح هذا الأسلوب الدعائي الناجح من أبي عبد الله الشيعي بين أهالي المغرب الإسلامي، من ذلك أنه حينما نزل بمكان يقال له "فج الأخيار" قال لأنصاره: "إن هذا المكان ما سمي إلا بكم..."[9]، وواصل حديثه، هذا ما أثر في نفوس قبائل كتامة وازدادوا

1- خير الدين الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، 1986م، ص199.

2- سلمية: هي أرض حمص من بلاد الشام. الحموي، المصدر السابق، ج3، ص272.

3- المقريزي، المصدر السابق، ص41.

4- تالا: تقع شرق تبسة على حدود المغرب الأوسط مع افريقية. محمد الصالح مرمول، **السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ص31.

5- أبو حنيفة بن محمد بن حيون التميمي المغربي القاضي النعمان، **إفتتاح الدعوة**، تح: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د ت، ص، ص27،28.

6- مرماجنة: قرية من قرى قبيلة هوارة بافريقية. أبو القاسم النصيبي ابن حوقل، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د ت، ص84.

7- نفزة: مدينة بإفريقية بينها وبين القيروان ثلاثة أيام من جهة الغرب. الحموي، المصدر السابق،ج3، ص136.

8- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص، ص246، 247.

9- المقريزي، المصدر السابق، ص57

تعلقا بهذا الداعي، فأصبح رؤساؤهم ينوبون عنه في الدعوة لمبادئ هذا المذهب الجديد، ويبدوا أن فقهاء القيروان قد وجدوا في حسن استقبال الداعي لهم، ما أثلج صدورهم فرغبوا في دعوته، لاسيما أنهم كانوا يمثلون السلطة الدينية التي تلتف بكل دولة تسعى إلى الظهور والسيادة[1].

- **مرحلة تكوين الدولة:**

هناك من اعتبر أن فترة ظهور عبيد الله المهدي برقادة[2] وجلوسه على عرش الخلافة الفاطمية يمثل البداية الحقيقية لتكوين أول دولة شيعية في العالم الإسلامي[3]، بينما ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن اللبنات الأولى لتكوينها كانت على يد أبي عبد الله الشيعي.

عبيد الله المهدي: (297-322هـ/910-934م)

بعث أبو عبد الله الشيعي إلى الإمام عبيد الله المهدي، يدعوه إلى القدوم إلى بلاد المغرب[4]، ويصف لنا القاضي النعمان خروج الإمام قاصدا المغرب بأنه: "هجرة دار قراره بالمشرق"، فقد قال له أبوه الإمام محمد الحبيب: "إنك ستهاجر هجرة بعيدة، وتلقى محنة شديدة"[5]، ويرى القاضي النعمان أن المهدي كان يريد الرحيل من مصر إلى اليمن[6] ولكن أحد دعاته كان قد سبقه إلى اليمن، ولكنه تمسك بوفائه للإمام، فلم يجد ذلك الداعي من يستجيب له سوى علي بن الفضل.

1- وقد أشار القاضي النعمان إلى هذا بقوله:"وخرج شيوخ القيروان وفقهائهم لتلقي أبي عبد الله فلقوه ، وسلموا عليه وهنأه بالفتح، فأقبل عليهم بوجهه ورد عليهم أحسن رد...". القاضي النعمان، المصدر السابق، ص، ص243، 244.

2- رقادة: بلدة كانت بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام ولم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيما وأرق تربة منها. الحموي، المصدر السابق، ج3، ص، ص55، 56.

3- أبو عبد الله محمد بن عبد الله أبو بكر القضاعي ابن الآبار، **الحلة السيراء**، ج1، تح: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة و النشر، 1986م، ص192.

4- المقريزي، المصدر السابق، ص60.

5- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص149.

6- اليمن: ما اشتمل عليه حدودها من عمان إلى نجران. الحموي، المصدر السابق، ج5، ص-ص447-449.

وكان دعاة الإسماعيلية في بلاد اليمن، إذ ذاك يعتقدون أن دولة المهدي ستظهر في بلادهم، كما حرص رؤساؤهم على أن يكون قيامها على أيديهم، وكذلك كانت الحال بالنسبة لدعاة الإسماعيلية في المغرب، فكانوا يرجون قدوم المهدي إليهم لإقامة دولته، ولكن المهدي لم يكن راغبا في إقامة هذه الدولة باليمن، بل عزم الرحيل إلى بلاد المغرب منذ أن خرج من سلمية تلبية لدعوة أبي عبد الله الشيعي وتحقيقا لنبوءة أبيه بقيام دولته بالمغرب[1]، وبهذا اُعتبرت خلافة المهدي بمثابة عهد التأسيس وإرساء القواعد، بعد عهد التمهيد والمطاولة على أيدي الداعي.

القائم بأمر الله (322-334هـ/934-945م):

أعلنت خلافة أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي بالبيعة له في نفس اليوم الذي مات فيه أبوه المهدي، ولقب بالقائم بأمر الله، وهو يومئذ في مطلع العقد الخامس، ومن الواضح أنه كان لصيقا بوالده أثناء ولايته للعهد دون إخوته الخمسة الذين لا نعرف غير أسمائهم، ولقد اتخذ عهد القائم طابعا حربيا، فلا يكون من الغريب أن يبدأ ولايته بإصدار الأوامر إلى عماله، وأن لا يظهر خلال العشر سنوات الأولى في ملكه إلا بعض الأحداث الأخرى التي لا تشغل -عند المؤرخين- إلا حيزا ضئيلا[2].

أما سياسته فقد كانت مزدوجة خارجية (الحملة على مصر وعلى النصارى)، وداخلية هذه الأخيرة اِتسمت بالتصلب عند توليه مقاليد الحكم، ويظهر ذلك من خلال الإفراط في الجباية والاضطهاد الديني، وقد تم بالخصوص إخضاع أهل صقلية[3] لنظام رهيب من قبل عامل الجزيرة خليل بن إسحاق الذي كان من أخلص كبار رجال الدولة للخليفة إذ تميز حكم هذا العامل

1- محمد جمال الدين سرور، **النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب**، القاهرة، 1957م، ص، ص62، 63.

2 - سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي**، ج3، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1990م، ص165.

3- صقلية: إحدى أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط وهي حلقة وصل بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي بحكم موقعها الاستراتيجي، تعتبر مركزا تجاريا وحضاريا وهي جزيرة خصبة كثيرة القرى والأمصار. الحموي، المصدر السابق، ج3، ص- ص 316- 319.

بالتعسف، ففي عهد المهدي تمكنت السلطة الفاطمية في الزاب[1] وقسطيلية من مراقبة النواحي التي يقيم بها الإباضيون، إلا أن وفاة الخليفة الفاطمي الأول قد أتاحت الفرصة للعناصر المناهضة للدولة للثورة على الفاطميين، فلم تمض سوى بضعة أشهر على تسلم القائد مقاليد الحكم، حتى ثار الخوارج في ناحية قسطيلية سنة 323هـ/935م، وذلك أن رجلا بربريا من قبيلة بني يفرن الزناتية[2] يعرف بأبي يزيد، ويعتنق المذهب الخارجي قد شرع هناك في بث دعايته جهرا ضد النظام الشيعي.

وبعد عدة أحداث في ثورة أبي يزيد تزعزعت القوة الفاطمية بصورة جدّية بفضل معقل المهدية[3] العتيق والجيش، وبتوالي الأحداث في هذه الثورة جدّ في المهدية حادث حاسم لم يكن يعلم به أبي يزيد(صاحب الحمار) ألا وهو وفاة الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله تاركا العرش لابنه إسماعيل المنصور الذي سيعمل فورا على إخماد تلك الثورة[4].

إسماعيل المنصور (334-341هـ/945-953م):

كان المنصور قد تجاوز الثلاثين من عمره بقليل لما آلت إليه الخلافة، إذ بدأت ولايته بالفعل في نفس اليوم الذي أحس فيه أبوه بقرب أجله، فعينه رسميا وليا للعهد، وتولى إسماعيل شؤون

1- الزاب: تقع على أطراف الصحراء وقد سميت ببلاد الجريد وهي مدن كثيرة وعمائر متصلة قاعدتها بمدينة طبنة. ابن حوقل، المصدر السابق، ص48.

2- بني يفرن: من أكبر قبائل زناتة وأوسعها وأشدها شوكة، أما أصلهم فهو محل جدال بين النسابة. ابن خلدون، العبر، ج9، ص15.

3- المهدية: بناها أبو عبد الله الشيعي سنة 300هـ يحيط بها البحر من ثلاثة جهات، بينها وبين القيروان ستون ميلا. أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ط2، تح: إحسان عباس، مطابع هيدلبرغ، بيروت، 1984م، ص561.

4- فرحات الدشراوي، **الخلافة الفاطمية في المغرب(296-365هـ/909-975م) التاريخ السياسي و المؤسسات**، تر: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994م، ص224.

الدولة باسم والده الذي لا يزال جالسا على العرش، وخلافا لما كان متوقعا لم يظهر أي رد فعل مناهض لولي العهد من قبل أعمامه وإخوته[1].

عندما توفي القائم كتم إسماعيل الخبر مثلما كتم خبر وفاة أبيه المهدي ، وذلك خوفا من الاضطرابات، وبالخصوص خشية أن يستفيد أبو يزيد من ذلك حيث كانت طريقة خليفة القائم في قيادة رجاله تعتمد بدرجة كبيرة على نفسه، وهو الذي سيرجع الأمور إلى نصابها في صقلية، ويستأنف القتال ضد النصارى، وضد الأمويين الأندلسيين في المغرب الأقصى، لِاستعادة نفوذه، وهكذا سيكون المنصور دائم النشاط خلال عهد قصير المدى لم يدم سوى سبع سنين خارج وداخل مملكته التي سيفتحها من جديد ويرجع إليها السلام ويعيد بنائها بعد خرابها وسيكرس أوقات فراغه القليلة قبل وفاته للدراسة وتأليف الكتب المذهبية ومن فرط اشتغاله بمهام الدولة أهمل شؤون أسرته وأبنائه الذين سيتعرضون للفاقة -حسب اعترافه هو ذاته- وسيحرمون مما عودهم به قبل اعتلائه العرش من كرم ورعاية[2].

ونلخص أعماله في الحملة البحرية والبرية على سوسة التي نتج عنها مقتل أبي يزيد، ومعركة القيروان، فبعدما أعاد المنصور الأمن لنصابه في مملكته، لم يمكث في المهدية سوى مدة قليلة، وكان قد أحس في وقت من الأوقات بالحاجة إلى الإقامة في مدينته الجديدة "المنصورية" التي بناها في نفس الموقع الذي انتصر فيه على صاحب الحمار، وحولها إلى عاصمة، وبعدما استعمل على المهدية خادمه جوذر انتقل إلى المنصورية مع ولي عهده، وأفراد عائلته وأغلب دعاته وأوليائه[3].

1- الدشراوي، المرجع السابق، ص226.

2- أبو علي منصور العزيزي الجوذري، **سيرة الأستاذ جوذر**، تح: كامل حسين وعبد الهادي شعيرة، سلسلة مخطوطات الفاطميين، القاهرة، 1954م، ص99.

3- الداعي إدريس القرشي، **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار)**، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م، ص501.

استمر المنصور في توسعة مدينته الجديدة وتحسينها وشيئا فشيئا نقل إليها مختلف المصالح الإدارية، وتوافد عليها عدد كبير من التجار، وبذلك شهدت تطورا كبيرا ليس فقط بوصفها عاصمة سياسية ومدنية ترفيهية، بل أيضا باعتبارها مركزا إداريا ومدينة تجارية، وقد أصبحت منذ عهد مؤسسها رمزا حيا لانبعاث الدولة الفاطمية من جديد.

المعز لدين الله (341-362هـ/953-973م):

اعتلى المعز لدين الله عرش الخلافة الفاطمية في المغرب في شهر شوال، فأخفى خبر موت أبيه مدة تقارب شهر وذلك كي لا تتعرض الحالة الطبيعية إلى انتكاسات، وقد مرّ معنا أن القائم أخفى خبر وفاة عبيد الله المهدي سنة كاملة، وأن المنصور أخفى موت القائم ثلاث سنوات، أما المعز فاكتفى بمدة شهر لأن أمور الدولة كانت أكثر استقرارا وأمنا، حيث أن أمور الملك وسياسة الرعية وغيرها من شؤون الدولة لم يكن بالأمر الجديد على المعز، ورجال الدولة من قضاة وقواد وشيوخ وولاة لم يشعروا بأن الخليفة شخص غريب عنهم، فقد سبق لهم أن عرفوه وليا للعهد[1](في عهدي القائم والمنصور)، ومن دون الدخول في تفاصيل، نلخص ونقول بأن المعز لدين الله هو الذي قام بنقل الدولة الفاطمية إلى مصر.

1- تامر عارف، **تاريخ الإسماعيلية من المغرب إلى المشرق**، ج2، ط1، لندن، 1991م، ص63.

2-التاريخ السياسي للمغرب الأوسط في العهد الصنهاجي:

أ-العهد الزيري:

- **زيري بن مناد:**

يجمع الرواة على أن زيري بن مناد كان يلفت الأنظار في صباه بجمال الطلعة وحسن البنية والنضوج المبكر، ولقد أبدى زيري منذ نعومة أظفاره ميلا إلى المغامرة والقيام بدور الرائد بين أقرانه[1]، فكان يركب عمودا من الخشب ويتقدم زملاءه في اللعب ليخوض بهم معارك وهمية، هذا الميل تطور لما أصبح يافعا إلى حب العراك والمنازلة، حيث كان زيري يجمع أصحابه ويسير على رأسهم للقيام بغارات في أراضي زناتة[2] فيقتل وينهب كأي قاطع طريق عادي، ويعود مثقلا بالغنائم التي يتقاسمها مع رفقائه، ولقد وجد زيري نفسه منذ المراحل الأولى من زعامته أمام معرضة قوية من عناصر من صنهاجة، دخلت في معارك عديدة معه، لكنه ظفر بهم بعدما عمل فيهم قتلا وسبيا[3].

ولما بلغت أخبار هذه المعارك زعماء زناتة كاتبوا من خالف زيري من صنهاجة وحالفوهم على حرب زيري، هذا الأخير لم يترك الوقت الضروري لأعدائه ليستكملوا استعدادهم فخرج على رأس جيش تحت ستار الليل، وضرب على زناتة بأرض مغيلة فشتت جموعهم، وسبى وقتل منهم رؤساء كثيرين ثم رجع مثقلا بالغنائم من خيلهم، ثلاثمائة فرس وزعها على أصحابه[4] ، وقد شاع خبر هذه المعركة وتسامع الناس بها في مختلف أنحاء المغرب، فعظم أمره واجتمع إليه خلق

1- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص43.

2- زناتة: من قبائل البربر تواجدت بافريقية كانت اشد القبائل جمعا و أشدهم قوة، يختلف النسابة حول أصلها ولها بطون منها مغراوة. ابن خلدون، العبر، ج6، ص15.

3- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص43.

4- شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تح: عبد المجيد ترجيني، ط1، منشورات كلية الكتب العلمية، بيروت، د ت، ص، ص231، 232.

كثير، وبعد رسوخ زعامته واعتراف معظم فروع صنهاجة به أخذ زيري يفكر في بناء مدينة يدير منها شؤون القبيلة وتكون مقرا لحكمه.

- مدينة أشير:

لقد قرر زيري بن مناد بناء مدينة أشير في أيام القائم بأمر الله في سنة 324هـ، ثم أمر بإحضار البنائين والنجارين من سوق حمزة[1] والمسيلة[2] وطبنة،[3] وبعث إلى القائم في طلب صناع، فبعث إليه بمهندس معماري يُقال أنه لم يكن في إفريقية[4] أعلم منه[5]، وكذلك أمده الخليفة الفاطمي بمواد البناء غير المتوفرة لديه مثل الحديد وغيره، وبذلك شرع زيري بن مناد في بناء المدينة وواصل العمل فيها حتى أتممها ثم خرج إلى طبنة والمسيلة وسوق حمزة، فنقل منها وجوه الناس إلى المدينة الجديدة فعمرت.

تقع أشير على شرقي شمال عين يوسف، على قمة جبل ارتفاعه حوالي 1400م عن مستوى البحر، وتبعد بحوالي 12 كلم، تمتاز هذه المدينة بموقعها المنيع الذي يشرف على منطقة جبال القبائل، وقد وصفها البكري: "وهي جليلة حصينة...ليس في تلك الأقطار أحصن منها... وبني سورها بلكين بن يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي سنة سبع وستين وثلاث مائة وخربها يوسف

1- سوق حمزة: مدينة نزل بها وبناها حمزة بن الحسن بن سليمان، يطلق عليها ابن حوقل اسم حائط حمزة. الحموي، المصدر السابق، ج2، ص302. وأيضا: ابن حوقل، المصدر السابق، ص87.

2- المسيلة: أهم معاقل المغرب الأوسط في القرن الخامس أخذت أهميتها تضعف منذ أن شيدت القلعة، تبعد هذه الأخيرة عن المسيلة مسافة اثني عشر ميلا. الحميري، المصدر السابق، ص، ص469، 470.

3- طبنة: أعظم مدن بلاد المغرب فتحت على عهد موسى بن النصير ولم يكن من القيروان إلى سجلماسة أكبر منها، وهي مدينة جليلة محاطة بسور ضخم تتخلله خمس أبواب معظم سكانها من العرب والعجم. نفسه، ص387. وأيضا: أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب(جزء من كتاب المسالك والممالك)**، تح: DESLANE، الجزائر، 1912م، ص50.

4- إفريقية: مملكة قبالة جزيرة صقلية، وسميت إفريقية نسبة لإفريقش، وقيل سميت إفريقية لأنها فرقت بين مصر والمغرب وحد إفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والإسكندرية وبجاية. الحموي، المصدر السابق، ج1، ص228.

5- النويري، المصدر السابق، ص232.

بن حماد بن زيري وإستباح أموالها وفضح حرمها وذلك بعد أربعين وأربع مائة ثم تراجع الناس إليها بعد خمس وخمسين"[1].

إلا أن موقع أشير رغم وعورته، تشوبه بعض نقاط الضعف، تتلخص في كون الموقع منعزلا، يراقب سهول واسعة تسكنها قبائل زناتة المعمارية[2] وتتحكم فيها، وإن كان هذا الموقع لائقا ليكون قاعدة لقبيلة، فهو غير صالح ليكون عاصمة للدولة، ولا يوجد بين هذا المركز وعاصمة الزاب طبنة سوى مدينة المسيلة التي يصعب الدفاع عنها لكونها تقع وسط سهل.

أما سوق حمزة فهي تقع في قلب أراضي قبيلة صنهاجة ولا يصلها عدو حتى يستولي على رقعة كبيرة من هذه الأراضي، وفي الحقيقة فإن هذه الحاضرة تتكون من ثلاثة مدن منفصلة الواحدة عن الأخرى، القريبة منها تسمى "منزه بنت السلطان"[3] "ويشير"[4] و"بنية" وفي هذه الأخيرة يوجد مسجد أشير الذي ما زال واضح المعالم بين آثار المدينة.

وبعد إتمام البناء اكتظت بالأدباء والعلماء والفقهاء وأهل الحرف والتجار من مختلف أنحاء المغرب، إذ بدأ زيري بن مناد يضع الأسس العامة لدولته فنظم الجيش وعمل على نشر الأمن والطمأنينة، حيث تمكن من إحراز انتصارات ساعدته في استكمال منهج الإصلاح ونجح فيه نجاحا كبيرا.

وبإجتماع عدة ظروف أصبحت أشير عاصمة ومركزا لنفوذ قوة سياسية وعسكرية ضخمة، سمحت للفاطميين من بسط نفوذهم وإعادة الاستقرار للجناح الغربي من الإمبراطورية[5]، وفي

1- البكري، المصدر السابق، ص60.

2- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص53.

3- منزه بنت السلطان: حصن سميك السور يقع شمال غرب عين يوسف. البكري، المصدر السابق، ص137.

4- يشير: اسم أشير باللهجة البربرية، والظاهر أن هذا الموضع هو مكان بناء أشير القديمة التي بناها زيري. رضا بن النيه، **صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر (80هـ-699م/392هـ-973م)**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، قسنطينة، 2006م، ص49.

5- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص56.

حقيقة الأمر أن الخلافة الفاطمية كانت في أشد الحاجة إلى مثل هذا الحلف مع صنهاجة، ولقد تمكن زيري من مساعدة الفاطميين بإشغال زناتة عن محاربتهم بكل قواها في هذه المرحلة الصعبة وقدم لهم يد المساعدة[1].

ب- **العهد الحمادي:**

- أصل الحماديين:

ينتسب بنو حماد إلى زعميهم السياسي ومنشئ دولتهم حماد بن بلكين بن زيري بن منقوش بن صنهاج الأصغر بن صنهاج الأكبر، وبالتالي فإن أصل الحماديين يرجع إلى قبيلة صنهاجة التي كانت على حد تعبير ابن خلدون: "من أوفر قبائل البربر، حتى زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر"[2].

وحسب هذه الرواية فإن قبيلة صنهاجة نفسها نسبة إلى صنهاج الأكبر الذي يعتبر أحد أبناء يونس بن بر بن مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح[3] ولكن تبقى الأصول الأولى لقبيلة صنهاجة موضع خلاف كبير بين النسابة والمؤرخين خصوصا فيما يخص أصلها العربي والبربري، فهي حسب الطبري وابن الكلبي من أصل عربي تنتهي إلى حمير، وغيرهما من أمثال ابن خلكان[4] وابن الأثير[5] ومن تبعهم من المؤرخين، وبناء على هذا فإن صنهاجة حسب هؤلاء المؤرخين

1- صالح يوسف بن قربة، **تاريخ مدينتي المسيلة وقلعة بني حماد في العصر الإسلامي**، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009، ص32.

2- ابن خلدون، العبر، ج6، ص309.

3- أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي المعروف بابن حزم، **أنساب العرب**، ج6، تح: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، 1962م، ص109.

4- أبو العباس شمس الدين ابن خلكان، **وفيات الأعيان و إنباء أبناء الزمان**، ج1، تح إحسان عباس، دار صادر ، بيروت، 1978، ص240.

5- أبو الحسن علي بن أبي كرم ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، المنيرية، مصر، 1953م، ص47.

تتصل بصنهاج بن المثنى بن المنصور بن مصباح بن عيصاب بن مالك بن حمير الأصغر من سبأ[1]

ويرى بعض الآخر بأن صنهاجة قبيلة عربية يتصل نسبها بقيس عيلان[2]، غير أن ابن حزم وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين المتأخرين يؤكدون على أصلها البربري غير العربي[3].

أما ابن حزم فقد رفض أن تكون من أصل عربي وحجته في ذلك أن النسابين لم يعلموا لقيس عيلان هذا ابنا اسمه بر، هذا فضلا على أن حمير نفسها لم تكن لها طريق إلى بلاد البربر، أما حسب رواية النويري، فإن أول رجل من قبيلة صنهاجة دخل بلاد المغرب هو المثنى بن المسور، وأن أشهر أفراد هذه القبيلة بعده هو مناد بن منقوش وزيري بن مناد وبلكين بن زيري وطبقا لرواية هذا المؤرخ فإن: "المثنى بن المسور، كان يعيش في اليمن، وأنه قد تركه عقب فتحه من طرف الحبشة[4]، وانتقل إلى الشحر على ساحل حضر موت[5]، حيث التقى بكاهن نصحه بالانتقال إلى المغرب مذكرا إياه بأنه سيكون لأولاده شأن عظيم بها ويؤسسون الدول"[6].

أما الأستاذ حسن أحمد محمود فيرى في ظاهرة النسب العربي الذي كانت قبيلة صنهاجة تدعيه حول نفسها، إنما كان رغبة من قبيلة صنهاجة في أن تقف على قدم المساواة مع القبائل العربية، حتى تتمكن من المشاركة في الحياة السياسية الجديدة التي أظلت بلاد المغرب بقدوم العرب علما أن حماد كان ابن بلكين واحدا من أحفاد زيري، أشهر أمراء صنهاجة وكانوا ثلاثة إخوة هم يطوفت، إبراهيم والمنصور الذي ولي حكم بني زيري بعد والده بلكين وكان له من

1- ابن حزم، المصدر السابق، ص495. وأيضا: ابن خلدون، العبر، ج6، ص310.

2- ابن حزم، المصدر السابق، ص 495.

3- ابن خلدون، العبر، ج6، ص310.

4- الحبشة: منطقة موجودة بالبصرة رحل مجموعة من سكانها مع عمر رضي الله عنه وسكنوا جبل أسفل مكة، بينه وبين مكة ستة أميال. الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 214.

5- حضر موت: اسم موضع وقبلة و هي ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر. نفسه، ص، ص 269، 271.

6- أحمد محمود حسن، **قيام دولة المرابطين**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1957، ص 493.

عمومته ثمانية هم: حران وقادر وعزم وكباب، زاوي، جلاله، ماكس وأبو البهار[1] وكان حماد سببا في قتل عمه ماكس وإرغام عميه زاوي وجلاله وأولادهما على الرحيل إلى الأندلس[2]

- **مراحل تطور الدولة الحّمادية:**

دام عمر الدولة الحمادية ما يقارب قرنا ونصف القرن منذ اختط حماد القلعة إلى سقوط الدولة بيد عبد المؤمن بن علي[3]، ولقد حكم الدولة على امتداد هذه الفترة تسعة أمراء اختلفوا قوة وضعفا وأسلوب حكم، وتعتبر الدولة الحمادية أول دولة بربرية مستقلة بالمغرب الإسلامي[4].

لقد مرت الدولة الحمادية كغيرها من الدول بعدة أطوار تقلبت فيها من الصراع الطويل المستمر إلى الاستقلال النسبي والإبداع الحضاري إلى مجرد الاستهلاك المقترن بمظاهر الترف فالأفول[5] منقسمة إلى ثلاثة فترات و هي كالتالي:

- **الفترة الأولى**(405-443هـ/1014-1051م): وتعرف بمرحلة الاستقرار حيث كانت البداية مع الانطلاقة التي قام بها حماد في إنشاء قلعته سنة 398هـ/1007م، والنجاح الذي حققته حركته الاستقلالية سياسيا ومذهبيا عن الدولة الزيرية والخلافة الفاطمية ومذهبها الشيعي، وإعلان ولائه للدولة العباسية واعتناقه المذهب السّني ابتداء من سنة 405هـ/1014م[6]، مما نتج عنه صراع دموي بين أبناء الأسرة الصنهاجية الواحدة.

1- عبد الحليم عويس، **دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري**، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، د ت، ص50.

2- ابن بسام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، القسم الرابع، مج1، لجنة التأليف النشر والتوزيع، القاهرة، 1938م، ص61.

3- عبد المؤمن بن علي: بن مخلوف بن يعلى بن مروان أبو أحمد الكومي (نسبة إلى كومية من قبائل البربر)، وهو الزعيم السياسي الأول لدولة الموحدين ولد في تاجرت بالقرب من تلمسان، كان صديقا للمهدي وقائدا لجيوشه قبل أن يسلم إليه زمام الأمور تلقب بأمير المؤمنين. ابن الأثير، المصدر السابق، ج10، ص201. وأيضا: ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص237.

4- عبد القادر جغلول، **مقدمات في تاريخ المغرب العربي**، تر: فضيلة الحكيم، دار الحداثة للطباعة و النشر، سورية، 1982م، ص، ص58، 59.

5- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص110.

6- إبراهيم أحمد العدوي، **بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي و العربي**، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، د ت، ص173.

القلعة(عاصمة بني حماد الأولى): بعد أن سمح باديس بن المنصور لعمه حماد في أن يختار مقر إقامته الجديدة، استقر رأيه في نهاية الأمر على قلعة اسمها(أبو الطويل)، حيث بدأ حماد يبحث في هذا المكان عن بقعة تصلح لبناء مدينة لملكه الذي كان يتطلع إليه جريا على عادة مؤسسي الدول، حيث يستقر بهم الحال إلى الاستقلال بشؤونهم[1] وفعلا شرع سنة 398هـ في تأسيس مدينته الجديدة التي سميت باسمه وأصبحت منذ ذلك التاريخ تعرف باسم قلعة بني حماد، وكانت قلعة أبي طويل في موضع يحقق لحماد أغراضه فهي تقع على بعد 36 كلم شمالي شرقي المسيلة في جبل منيع اسمه جبل عجيسة (أوكيانه)[2].

وقد وفق المؤسس في اختيار مدينته لتكون حصنا منيعا إذ اشتدت به الخطوب وحاضرة لملكه المنتظر[3]، واستغرق بناء قلعة بني حماد سنتين حتى صارت صالحة للسكن، حيث أحاطها بسور من الحجارة يمتد حول جبل كيانه على استدارة سبعة كيلومترات وحسب ابن خلدون: "اختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان وتسعين وهو جبل عجيسة وبه لهذا العهد قبائل عياض من عرب هلال[4] ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة وخربها، ونقل جراوة[5] من المغرب وأنزل لهم بها، وتم بنائها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة"[6]، ولقد استقر حماد في مدينة القلعة الحصينة

1- بن قربة، المرجع السابق، ص 83.

2- اسمه حاليا جبل المعاضيد.

3- أحمد العدوي، المرجع السابق، ص272.

4- عرب هلال: أصل قبائل بنو هلال من مضر نزلوا بجبل زغوان عند الطائف، تضم قبائل من جشم، الأثيج وزغبة وعّدي، واليازوردي وزير الإمام الفاطمي هو الذي أمر بنقلهم إلى إفريقية. عبد العزيز سالم: **تاريخ المغرب في العصر الوسيط**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2006، ص، ص581، 582.

5- جراوة: ناحية بالأندلس وهي أيضا موضع بإفريقية. الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 117. وأيضا: ابن خلدون، العبر، ج7، ص11.

6- ابن خلدون، العبر، ج6، ص 350.

ذات الإستراتيجية الحربية بدل مدينة أشير، لأن القلعة تتيح له السيطرة على سهول الحضنة ومراقبة تحركات القبائل الزناتية الثائرة على الزيريين[1].

ورغم هذه الأهمية الإستراتيجية للمدينة الجديدة فإن حماد لم يهمل أشير بل ظل يزورها من حين لآخر، وقد أدرك باديس بعد ارتفاع شأن القلعة وازدهارها ميول عمه حماد للاستقلال بما تحت يديه بلاد المغرب الأوسط، وأراد أن يختبر نواياه ونزعته الاستقلالية والحد من سلطانه فطلب منه أن يتنازل عن ثلاثة مدن من شرق المغرب الأوسط هي تيجس وقسنطينة والقصر الإفريقي لولي عهده (المنصور بن باديس) لما لهذه المدن من مكانة إستراتيجية.

ولهذا السبب استدعى باديس هاشم بن جعفر ومنحه الخلعة والرايات والطبول وأمره أن يتولى شؤون المدن الثلاثة السابقة[2]، ظنا من باديس أن الأمر سيتم بسهولة ودون حرب، فاصطحب هاشما هذا أخي حماد بن بلكين وسلموا الرسالة لحماد، ولكنه رفض هذا الطلب وأعلن استقلاله عن ابن عمه، ونشبت بذلك حروب متعددة بين باديس وعمه حماد منذ سنة 405هـ[3].

ولقد استطاعت القلعة أن تقدم لحماد كل أسباب الحماية حيث كانت الغلبة في هذا الدور من النزاع لباديس، وهكذا استمرت الحرب بين الطرفين المتنازعين حتى بعد وفاة الأمير الصنهاجي باديس بن المنصور.

-الفترة الثانية(443-481هـ/1051-1089م): وتعرف بمرحلة الاستقرار النسبي وقد شهدت فيها الدولة الحمادية أوج عظمتها[4] اتساعا و حضارة وثقافة نتيجة للدور المعتبر الذي قام

1- أحمد العدوي، المرجع السابق، ص272.

2- رشيد بورويبة، **الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني**، ج3، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص63.

3- بن قرية، المرجع السابق، ص، ص84، 85.

4- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص138.

به الناصر بن علناس[1] ومنها تحويله لعاصمة الدولة من القلعة إلى بجاية سنة 460هـ/1067-1068م[2]، في محاولة منه لعزل الهلاليين، وفتح آفاق جديدة لدولته ومحافظة منه على ملكه على غرار ما حصل لبني عمومته الزيريين بإفريقية.

بجاية(عاصمة بني حماد الثانية): تمثل مرحلة بجاية[3] في تاريخ الدولة الحمادية مرحلة التحضر والانفتاح والهدوء والاتساع كما أنها تمثل الشوط الأخير في سقوط الدولة، وقد اختلف المؤرخون حول الأسباب الرئيسية التي أدت إلى بناءها وكذلك الظروف التي أحاطت قصة بنائها أيضا، فحسب ابن الأثير[4] فإن النتائج التي أفرزتها موقعة سبيبة[5] التي هُزم فيها الناصر بن علناس سنة 457هـ/1064م على يد الزيريين كانت هي السبب في حمل الناصر على التفكير في بناء المدينة، ويضيف ابن الأثير إلى هذا السبب رأيه في أن بناء بجاية كان مرتبطا بقصة الصلح بين الناصر الحمادي وتميم بن المعز الصنهاجي بعد موقعه سبيبة، وخيانة محمد ابن البعبع أحد رجال تميم بن المعز وتآمره مع الناصر بن علناس، وهناك من الباحثين من رجع إلى الصدفة، وذلك أن الناصر كان يمر في طريقه إلى القلعة فأعجبته ضيعة صغيرة لصنهاجة تسمى بجاية[6] ومن المستبعد أن يكون خراب القلعة وهجوم الهلاليين هو السبب الرئيسي في بناء المدينة الجديدة

1- الناصر: خامس ملوك بني حماد وأعظمهم ملكا وأبعدهن صيتا، كان حازما جوادا عالي الهمة، بلغ نفوذه إلى وركلان- ورقلة- جريئا على سفك الدماء شديد الغيرة على النساء، له أخبار مشهورة وهو الذي بنى بجاية كان محبا للفنون والمعمار فأنشا القصور الفاخرة. لسان الدين السليماني ابن الخطيب، **تاريخ العرب في العصر الوسيط (الجزء الثالث من كتاب أعلام الأعلام)**، تح: العبادي وإبراهيم الكتاني، طبع دار الكتب، الدار البيضاء، 1964م، ص- ص94- 96. وأيضا: ابن خلدون، العبر، ج6، ص، ص231، 232. وأيضا: النويري، المصدر السابق، ص، ص124، 125.

2- بن يوسف سليمان داود، **حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي**، مطبعة أبو داود، الجزائر، 1983م، ص83.

3- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص97.

4- ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص102.

5- سبيبة: مدينة قديمة كثيرة المياه والبساتين تقع على الطريق بين تبسة والقيروان، تحتوي على جامع وحمامات و طواحن. ابن حوقل، **المسالك والممالك**، مطبعة بريل، 1872، ص58. وأيضا: البكري، المصدر السابق، ص146.

6- إبراهيم أحمد العدوي، **المجتمع المغربي**، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، 1970م، ص273.

كما يرى الإدريسي الذي يقول: "وأما مدينة بجاية في ذاتها فإنها عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد"[1] بدليل أن قلعة بني حماد في ذلك الوقت لم تكن مهددة من طرف الهلاليين.

أما لسان الدين ابن الخطيب فيرى أن الناصر عندما استقر له الأمر"كره مجاورة بني حماد أكناف القلعة المنسوبة إليهم، إذ كان يسكنها من فرسان صنهاجة أثنا عشر ألف فارس، فبنى قريب منها بالجبل مدينة وقصورا شامخة"[2].

أما ابن خلدون فرأيه مخالف تماما إذ يقول: "في سنة ستين (أي 460هـ) فتح جبل بجاية... فلما افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسماها الناصرية وانتقل إليها سنة إحدى وستين (أي 461هـ)..."[3]

ونلاحظ بأن أغلبية المؤرخين يربطون قرار الأمير الناصر بن علناس لبناء بجاية بمعركة سبيبة[4] وبهذا نجد ابن الأثير وابن خلدون يجعلان من هذه الهزيمة سببا رئيسيا في تغيير الحاضرة من القلعة إلى بجاية.

والمتمعن في الأحداث التي وقعت(خاصة في هذه الفترة) يدرك بأن تغيير العاصمة من القلعة إلى بجاية يستند إلى إستراتيجية سياسية بعيدة المدى. وذلك أن نقل العاصمة لم يصرح به الناصر ولم يقم به في حياته بل المنصور[5] هو الذي نقل العاصمة من القلعة إلى بجاية، وكان ذلك سنة 483هـ أي بعد 26 سنة من معركة سبيبة، واضمحلال القلعة وأفولها كان في عهد العزيز بن المنصور.

1- الإدريسي، المصدر السابق، ص116.

2- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص94.

3- ابن خلدون، العبر، ج6، ص35.

4- بن قربة، المرجع السابق، ص146.

5- المنصور: جلس على عرش المملكة الحمادية بعد وفاة أبيه الناصر، كان فاضل الأخلاق، كريم الشيم عزيز النفس ساس أمور الدولة سياسة رشيدة ، صالح المرابطين وصاهرهم، حميد الخصال يكتب ويشعر، مولعا بالبناء وتشييد المصانع. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص، ص97، 98. وأيضا: ابن خلدون، العبر، ج6، ص223.

وهنا نستلخص أن تأسيس مدينة بجاية كانت وليدة الفكر التوسعي الحمادي الذي جعل منها قاعدة بحرية على منافذ كثيرة تسّهل عليهم تحقيق مشروعاتهم التوسعية وتأثيراتهم الحضارية، ومهما يكن فإن الناصر بن علناس هذا قد فتح جبل بجاية عام 460هـ واختط المدينة التي عرفت بالناصرية لتكون حاضرة الدولة الجديدة منذ 461هـ بدل قلعة بني حماد[1]، فكان لابد للأسطول الحمادي، أن يجعل السيادة على البحر الأبيض المتوسط من ميناء عظيم حصين يأوي إليه ويتخذه قاعدة لعملياته الحربية في حوض البحر، فكانت بجاية قاعدة مصوبة إلى القواعد النصرانية، تتحكم في ساحل البحر وتقاوم التوسع النورماندي[2].

- **الفترة الثالثة(481-547هـ/1109-1152م):** يطلق عليها أيضا مرحلة التراجع والسقوط، وفيها تقلص نفوذهم تدريجيا رغم نشاطهم البحري الكبير ضد النورمان المسيحيين ووضع حد لتواطؤ حكام إفريقية معهم من خلال حملات العزيز بن المنصور و خليفته يحيى على المهدية وما والاها[3].

المبحث الثاني: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الأوسط خلال العهد الصنهاجي

1- التاريخ الاقتصادي:

أ- الزراعة:

كانت بلاد المغرب الأوسط مزدهرة في المجال الزراعي فانتشرت الباستين والمزارع، إذ كان الفلاحون يقومون بالزراعة الشتوية المعروفة، وكذلك الزراعة الصيفية، وقد أشار اليعقوبي إلى أن الفلاحين يزرعون السمسم[4]، ويستفيدون من الأرض مرتين، فيزرعون أولا معتمدين على مياه

1- بن قربة، المرجع السابق، ص146.

2- نفسه، ص147.

3- ابن عذاري، المصدر السابق، ص312. وأيضا: ابن خلدون، العبر، ج6، ص331.

4- أحمد بن أبي يعقوب بن الواضح اليعقوبي، **وصف إفريقية الشمالية(مأخوذ من كتاب البلدان)**، اعتناء ونشر هنري بريس، الجزائر، 1380هـ، ص16.

الأمطار وبعد الجني يقومون بزراعة ثانية خاصة الخضر، أما بخصوص الأسعار فقد كانت رخيصة، ويذكر ابن أبي زرع في سنة 380هـ: "كان الزرع لا يوجد من يشتريه لكثرته وكان الحراثون يتركونه ولا يحصدونه"[1]، وقد اشتهرت المنطقة بحاصلاتها الزراعية المتنوعة والوفيرة وهناك عدة إشارات للرحالة والجغرافيين في هذا الصدد فنجد ابن خرداذبة يصف المناطق الممتدة بين تاهرت وتلمسان بقوله: "عمران كلها"[2].

ومن أشهر المحاصيل والمنتوجات: الفواكه مثل السفرجل، الإجاص، الكمثرين البرقوق والمشمش والتفاح والرمان وحب الملوك والتين والتمر والعنب واللوز والجوز والبطيخ الذي كانت منه ستة أنواع، وزراعة النخيل إضافة إلى عدة نباتات منها الورد والياسمين والنرجس[3]...الخ

كما اِشتهر السكان بتربية الحيوانات، بدليل قول صاحب الاستبصار أن بلاد المغرب الأوسط "كثيرة الغنم والماشية طيبة المراعي"[4]، وترجع أسباب نجاح تربية الحيوان إلى توفر الأمن الشامل وقلة الأعداد، وأشهر الحيوانات بها البغال والإبل والغنم والبقر وكذلك الطيور بما فيها الحمام[5] والإوز.

ب- **الصناعة:**

أما بخصوص الصناعة فقد خضعت إلى عدة عوامل أثرت فيها وأدت إلى ازدهارها مثل اتساع العمران، توفر المواد الخام، وكذلك لسياسة الدولة التي كانت في المستوى ونظموا الأسواق إذ أفرد لكل صنعة سوقا...، وغيرها من العوامل، لكن في المقابل توجد عوامل أخرى تقف حجر

1 - أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي بن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تصحيح وطبع كارل يوحن يورنبرغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسالة، 1963م، ص36.

2- أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبة، **المسالك و الممالك**، مكتبة المثنى، بغداد، 1989م، ص88.

3- عبد الكريم يوسف جودت، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين(9-10م)**، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1992م، ص- ص42- 55.

4- مؤلف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول، الإسكندرية، 1958م، ص179.

5- يوسف جودت، المرجع السابق، ص69.

عثرة في عجلة الصناعة[1]، هذا ما أدى إلى تنوعها بما فيها صناعة النسيج، الصوف، والكتان والحرير والقطن والصناعات المعدنية بأنواعها، الصناعات الحديدية والغذائية مثل عصر الزيتون، صناعة الخمر وكذلك الصناعات الفخارية.

ج- التجارة:

والتجارة كانت مزدهرة ونشطة بنوعيها، داخلية بين مختلف أقطار المغرب الإسلامي (أدنى، أوسط وأقصى)، وخارجية حيث سارت القوافل في جميع الاتجاهات محملة بسلع مختلفة ذهابا و إيابا[2]، سواء على الطريق البري أو البحري.

وفيما يخص الصادرات فقد كانت متنوعة منها الحبوب، العسل، التين، القمح الذي يصدر بواسطة السفن إلى الأندلس، وصقلية وبواسطة القوافل في اتجاه سجلماسة[3]، وبلاد السودان الغربي وكذلك الغنم الموجهة نحو قرطبة[4] ومادة الملح نحو بلاد السودان الذي كان التجار يبادلونه بوزن أو وزنيين من الذهب أو أكثر، والخيول... وغيرها، في حين تمثلت الواردات في الموز والفستق والزعفران والكتان والرصاص والنحاس التي كانت تصل من الأندلس، وكذلك الحديد المغناطيسي واللازورد والياقوت الأحمر والزئبق والسلاح، والذهب والعبيد من بلاد السودان...وعلى أية حال، فليس من السهل حصر ما كانت تصدره وتستورده بلاد المغرب الأوسط.

1- يوسف جودت، المرجع السابق، ص85.

2- نفسه، ص193.

3- سجلماسة: مدينة في جنوبي المغرب في بلاد السودان بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، وهي من منقطع جبل درن. الحموي، المصدر السابق، ج3، ص192.

4- قرطبة: أعظم مدينة بالأندلس، وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة، وهي محصنة بسور من الحجارة يُ نسب إليها عدد وافر من أهل العلم. الحموي، المصدر السابق، ج4، ص، ص324، 325.

2- التاريخ الاجتماعي:

كانت الطبقة الأرستقراطية تتألف من الصنهاجيين والشيعة، والعرب من ذوي الأصل العربي وقد كان ينتدب من بينهم كبار الموظفين ومنهم نواب الأمير، وكانت تضم أيضا أفراد العائلات العربية والبربرية الماجدة والأشراف، بالإضافة إلى رؤساء القبائل الهلالية الرّحل الذين قدموا بعد زحفة بني هلال، ويبدوا أن تركيبة الطبقة البرجوازية المالكية الصغرى لم تتغير، وكذلك تركيبة الريفيتين وأبناء القبائل الرّحل، وبطبيعة الحال كان يوجد في أسفل السلم الاجتماعي سواء في المدينة أو في البادية عبيد يعملون لدى أصحاب الأملاك العقارية والأثرياء البرجوازيين[1].

وكان بنو حماد في بجاية يتعممون بعمائم من الشّرب[2]، مطرزة بالذهب يمكن أن يبلغ ثمنها ستمائة دينار فما فوق، وكانت ملفوفة ومشدودة شدا حتى يخيل للّناظر أنها تيجان، وكان بعض الحرفيين المختصين في صنع تلك العمائم يتقاضون دينارين وأكثر عن كل عمامة، وكانت لهم قوالب خشبية في دكاكينهم تستعمل لهذا الغرض وتسمى الرؤوس[3]، وكان لباس العبيد المصنوع في تلك المدينة يسوى ثلاثين دينارا، ويمكن أن يرتدي الرجل الحضري الملابس التالية: الجبة والقميص والمقنعة[4]، والكساد.

وكان الحذاء الذي ورد ذكره في النصوصأكثر من مرة هو القَرقَ[5]، وبالرغم من أن المصادر لم تشر إلى ذلك، فمن المتحمل أن يكون النعل ما زال رائجا في العصر الصنهاجي وكذلك الخف، أما لباس النساء فلا يعرف جيدا لباسهن، إلا أن بعض أثوابهن كانت تحمل نفس

1- حمادي الساحلي، **الدولة الصنهاجية(تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن12م)**، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د ت، ص 186.

2- الشّوب: كتان رقيق. نفسه، ص206.

3- الاستبصار، المصدر السابق، ص34.

4- المقنعة: غطاء الرأس. الساحلي، المرجع السابق، ص208.

5- القّرقّ: جمع أقراق، وهو خف مصنوع من الفلين مشدود بسيور. نفسه، ص209

أسماء ملابس الرجال، مثل القميص والمرّقع والثوب والجبة والكساء ولا شك أن الحجاب لا يزال يسمى المقنعة.

أما مساكنهم فقد كانت بدائية وهي تشبه إلى حد كبير الكوخ، تضاف إليها أخصاص القصب والنخيل والكهوف في الجنوب الشرقي، أما المنازل الموجودة في المدن فهي تحتوي في أغلب الأحيان على طابق واحد، وحتى هذه المنازل كانت تبنى من الطوب في غالب الأحيان، في حين المطبخ يكون عادة فوق السقيف أو السقيفة[1].

المبحث الثالث: المؤثرات في الحياة الثقافية للمغرب الأوسط خلال العهد الحمّادي

عرفت الدولة الحمادية ازدهارا ثقافيا كبيرا، وقد تضافرت مجموعة من العوامل مكنت الدولة من أن توفر مناخا ثقافيا يشجع على التطور الفكري، والنهوض الحضاري، ولعل أهم هذه العوامل السياسية والاقتصادية خاصة بعد انتقال العاصمة من القلعة إلى بجاية، هذه الأخيرة التي مثلت حقيقة الدور الريادي الثقافي والحضاري للدولة.

1- العامل السياسي:

- **الاستقرار السياسي:**

لقد ساهمت الجهود السياسية والمتمثلة في سعي الأمراء الدؤوب في العمل على نشر الأمن والاستقرار في مختلف أرجاء الدولة، ويتمثل ذلك فيما قام به الناصر بن علناس (481هـ-454هـ) في إخماد الثورات ومقاومة للحركات الانفصالية التي بدأت تبرز كالثورة التي أشعل فتيلها سكان مدينة بسكرة ببلاد الزاب عندما خلعوا الطاعة وأرادوا الانفصال عن الدولة[2]، وما تمكن المنصور

1- حمادي الساحلي، المرجع السابق، ص- ص213-252.

2- ابن خلدون، العبر، ج6، ص، ص233، 234.

بن الناصر من القضاء على ثورة بني توجين[1] الزناتيين الذين تخالفوا مع العرب الهلالية ونشروا الفوضى وأصبحت الطرق والسبل غير آمنة[2]، وهذه السياسة الأمنية إن صح التعبير والتي انتهجها الأمراء الحماديون أثرت بصورة مباشرة على تنامي رفاهية المجتمع، وخلق مناخ ساعد على التطور الفكري في مختلف فنون العلم.

2- العامل الاقتصادي:

- الرخاء الاقتصادي:

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نبعد العامل الاقتصادي وأثره في ازدهار الحياة الفكرية في الدولة، فقد أجمعت المصادر التاريخية والجغرافية على أن الاقتصاد في الدولة كان مزدهرا على الرغم من تأثره في بعض الأحيان بالأحداث السياسية لاسيما مع بداية تأسيس الدولة ويتمثل هذا الرفاه الاقتصادي في أن القلعة عرفت رفاهية مترفة فكانت ملتقى للتجار وبها تحط الرحال من الحجاز والعراق ومصر والشام وسائر بلدان المغرب الإسلامي، وربما حتى من بلاد السودان[3].

وشهدت بجاية بعد انتقال الحماديين إليها نفس الرفاه الاقتصادي فقد وصفها الجغرافي الإدريسي قائلا: "ومدينة بجاية في وقتنا مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة وبها القوافل محطة والأمتعة إليها برا وبحرا، والسلع إليها مجلوبة... وأهلها مياسير تجار وبها من الصناعات والصّناع ما ليس بكثير من البلاد وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق... ولها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان بكثرة والتين

1- بني توجين: كانت أراضيهم تمتد ما بين قلعة سعيدة في الغرب والمدية في الشرق، وكان لهم من القلاع قلعة ابن سلامة ومنداس. ابن خلدون، العبر، ج6، ص45.

2- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص163.

3- نفسه، ص264.

وسائر الفواكه بها ما يكفي الكثير من البلاد... وبها دار الصناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن... وبها معادن الحديد والطيب، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة"[1].

ويتضح من خلال هذا الوصف للحياة الاقتصادية في بجاية أن جُل القطاعات الاقتصادية كانت في رخاء كبير، وهذا الرخاء لاشك أنه جعل الحماديين يهتمون بالحياة العلمية حتى تصبح حاضرة للدولة لا تختلف عن الحواضر العلمية الأخرى المشهورة في بلاد المغرب.

3-العامل الاجتماعي:

- الهجرة والتسامح:

كان المجتمع الحمادي يتكون من الكثير من الفئات المختلفة في الأجناس والأفكار، فإلى جانب السكان الأصليين من البربر من قبيلة كتامة وبعض بطونها كبني سدويكش وزواوة[2] والقبائل العربية خاصة الهلالية، ووفدت إلى بجاية أعداد كبيرة من الأندلسيين الذين لجؤوا إلى بلاد المغرب، بعد أن دبّ الضعف والهوان بين مسلمين الأندلس، وازدياد حركة الاسترداد، وسيطرة نصارى الأندلس على المزيد من أراضي المسلمين، وقد اختاروا بجاية لأنها كانت مركزا حضاريا رائدا[3]، وأن هؤلاء الأندلسيين نقلوا معهم تراثهم الفكري والحضاري وتقاليدهم الاجتماعية، ويبدوا أنه كان من بين الوافدين رجال العلم والثقافة، ويذكر أن العالم أبا بكر محمد بن محرز كان يترأس الجالية الأندلسية في بجاية، وكان مسكنه ملتقى لكبار القوم من الأندلسيين، كما تمكن بعض الأندلسيين من الارتقاء في المناصب الحكومية ممن اشتهر بالكتابة والإنشاء ومنهم من كان حاجبا أو وزيرا[4].

1- الإدريسي، المصدر السابق، ص116.

2- مفتاح خلفات، **قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط**، ط1، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، 2011م، ص- ص85-87.

3- سيدي موسى الشريف محمد، **الحياة الفكرية في بجاية ما بين القرنين 7 و10هـ/13 و16م**، أطروحة لنيل شهادة الماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 2002م، ص42.

4- نفسه، ص43.

كما استوطنت بجاية جالية مسيحية[1] قدمت من عدة جمهوريات ولعل وجود هذه الجالية كان بسبب العلاقات التجارية بين بجاية وكافة المدن الأوروبية.

إضافة إلى أنه تواجدت ببجاية جالية يهودية[2] ساهمت في إثراء الحياة الثقافية، خاصة وأنه كان من بينهم أطباء وأدباء وصيادلة ورجال الفكر بصفة عامة ولقد كان لهذا التنوع الإجتماعي دور كبير في التفاعل الثقافي، إذ تعددت مشارب الثقافة ومنابعها خاصة وأن الحرية الفكرية والدينية كانت متوفرة في بجاية والدليل على ذلك أن الحمّاديون سمحوا ببناء دور للعبادة ككنيسة العذراء[3].

1- المسيحية: كان النصارى يسكنون قلعة بني حماد وبجاية، إذ قيل كان لهم كنيسة بقلعة بني حماد سنة 507هـ/1114م، وكانت هناك علاقات طيبة بين الناصر بن علناس وغريغورا السابع. محمد الطمار، **الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج**، ش و ن ت، الجزائر، 2007م، ص، ص146، 147.

2- اليهودية: كان اليهود بقلعة بني حماد يمتهنون التجارة و الطب، وكانوا مستشارين خبراء في الشؤون المالية. رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص240.

3- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص، ص237، 238.

الفصل الثاني:

التعليم ومؤسساته

- **المبحث الأول:** دور الحكام في تنشيط الحياة العلمية والثقافية
- **المبحث الثاني**: التعليم (طرقه-مراحله-الرحلة...)
- **المبحث الثالث**: المؤسسات التعليمية

المبحث الأول: دور الحكام في تنشيط الحياة الثقافية

دخل الإسلام إلى المغرب وانتشرت الثقافة العربية الإسلامية في حواضره مثل القيروان و طنجة وتلمسان وتيهرت، ويرجع الفضل في ذلك إلى الولّاة ثّم الأمراء الذين دفعوا بها إلى الأمام دفعا بحيث لم يأت عهد الحّماديين إلّا وأصبحت البلاد تنافس المشرق والأندلس في جميع مشارب هذه الثقافة الفكرية منها، الأدبية والعلمية و الفنية [1].

فكان للحكام الحماديين شأن في ذلك، ويظهر ذلك من خلال اهتمامهم ورعايتهم وتشجيعهم للعلماء والمفكرين، فقد كانوا يُ وثرون العلماء على سائر الطبقات ويقدمونهم في الدولة، ويجودون عليهم بالعطاء، وكذا اهتمامهم بالتعليم في جميع أطواره إضافة إلى أنهم أوجدوا لونا من التعليم الجامعي وذلك بعد إنشاء الناصر بن علناس في بجاية معهد سيدي التواتي الذي كان يحتوي على ثلاثة آلاف طالب والذي كان يدرس فيه كل المواد[2]، إضافة إلى أنهم أوجدوا ما يعرف بالاختصاص فكانوا يجتهدون في التخصص في العلوم[3].

كان يتبادر إلى ذهن حماد بن بلكين أن يؤسس عاصمة جديدة تباهي القيروان والمهدية، فاختار لها موقعا استراتيجيا هاما بجبل كيانة على مقربة من ميناء بجاية ومن المسيلة، فاختطها سنة387هـ، ونقل إليها جماعات كبيرة من السكان، وأمرهم جميعا بالبناء والتشّييد، ولم يأت رأس السنة الرابعة حتى أصبحت الشوارع مكتظّة، والمساجد زاخرة، والفنادق عامرة وجلب إليها من مختلف أرجاء البلاد البعيدة أرباب الصناعة والتجارة وأهل العلم والطلبة، وظلّ يعمل جاهدا على فتح الحصون والقرى ويضّمها إلى ولايته[4] ومن المعروف أن حماد اشتهر بتقريب العلماء والأدباء، هذا ماجعل أهل العلم يتقاطرون عليه، وهو بنفسه عالم من طلبة القيروان.

1- محمد الطمار، **المغرب الأوسط في ظل صنهاجة**، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2010م، ص190.

2- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص254.

3- عبد الرحمن الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ج1، ط2، منشورات دار الحياة، بيروت، 1965م، ص384.

4- محمد الطمار، المغرب الأوسط . . .، ص92

ولقد تحدّث ابن الخطيب عن حماد وقال: "كان حماد نسيج وحده، وفريد دهره وفحل قومه ملكا، كبيرا وشجاعا ثبتا وداهية وحصيفا، وقد قرأ الفقه بالقيروان، ونظر في كتب الجدل، وهو الذي بنى القلعة المنسوبة إلى حماد بالحضرة الباقية الأثر على توالي الغير، وتسمى غياثا، فاتخذ بها القصور العالية والقصاب المنيعة والمساجد الجامعة والبساتين الأنيقة ونقل إليها الناس من سائر البلاد..."[1].

بينما يقول صاحب الاستبصار في معرض حديثه عن حماد: "حماد بن بلكين صاحب القلعة التي تنسب إليه كان صاحب دهاء وفطنة وممارسة في الحروب، وكانت له فراسة حسنة وذكاء وله أخبار مشهورة محفوظة "[2].

وبتأسيس الناصر الذي كان محبا للعلم لبجاية-عاصمة بني حماد الثانية- أقام بها كل أسباب الثقافة والحضارة من خلال تأسيس المدارس والمعاهد العليا، وأمر أن توزع المنح على العباقرة والمبدعين في كل فن، فازدحم على تلك المعاهد العلماء والحكماء والأطباء والأدباء وأيضا أصحاب الفنون الرياضية والهندسية، وقد بلغ إقبال الناس على العلم يومئذ إلى درجة أنه كان يجتمع حول المعلم الواحد ما ينيف عن مائة طالب، ولا فرق في ذلك بين المسلم وغيره، فترى المدّرس يلتقي طلبته على اختلاف مللهم وأجناسهم بصدر رحب تأدية لأمانة العلم، والذي نتج عنه امتلاء العاصمة الحمادية بالعلماء والأدباء والفنانين الماهرين، فنهضت الثقافة بها نهضة كبيرة بلغت أوج عظمتها[3].

وتأتي سنة483هـ/1090م، ويغادر المنصور بن الناصر بن علناس القلعة ويستقر في بجاية لأنه اعتبرها أكثر حصانة وأشد إستراتيجية، وأحسن موقعا منها فآثر أن يتخذها معقلا ويجعلها دارا

1- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص85.

2- الاستبصار، المصدر السابق، ص55.

3- محمد الطمار، المغرب الأوسط . . .، ص202.

لملكه، حيث جدّد قصورها، وشّيد جامعها، وكان مولعا بالبناء، "فهو الذي حضر بني حماد"[1] وتأنّق في اختطاط المباني والقصور، فبنى في القلعة قصر الملك وقصر الكوكب والمنار وقصر السلام وببجاية قصر أميمون، وجدّد قصر اللؤلؤة الذي بناه أبوه في نفس هذه المدينة.

وقد ساهمت هذه القصور في الجانب الثقافي التعليمي لاحتواء بعضها على مساجد، والتي كان يُلقى فيها حلقات الدرس، إضافة إلى أن بعض الأفراد كانوا يجعلون منازلهم وقصورهم بمثابة أماكن تقام فيها حلقات الدرس، والمناظرات بين العلماء، وهذا راجع لكون العلماء الحّماديين يتمتعون بمكانة علمية راقية (مثلا يحي كان أديبـا) هذا ما جعلهم يحتكون ويقرّبون إليهم العلمـاء والأدباء، فلا يفارقوهم في السلم ولا في الحرب[2].

إضافة إلى أن هذا العصر امتاز بحرية الأديان واحترام العقائد أكثر من أي وقت مضى، إذ كانت بالمدن الحّمادية طوائف مسيحية، وكان الحّماديون يحسنون معاملتهم ويحفظون حقوقهم، وهذا ما يظهر من خلال قصائد ومدح بعض الشعراء للأمراء الحماديين، والتي سنذكر بعضها في الفصل التالي، وهذا كله أسفر عن امتلاء عاصمة بني حماد بما فيها القلعة وبجاية بالعلماء والأدباء والفنانين الماهرين، وخير دليل على هذا ليونارد فنشي الذي زار بجاية، وتعلم بها العلوم الرياضية وخاصة منها علم الجبر، والمقابلة، وأدخلهما إلى أوربا التي كانت خالية وقتئذ من العلم والعلماء[3].

1- ابن خلدون، العبر، ج6، ص 458

2- محمد الطمار، المغرب الأوسط . . . ، ص133

3- نفسه، ص205

المبحث الثاني: التعليم ومؤسساته

يعتبر العصر الحمّادي في المغرب الأوسط من أزهى العصور، حيث ازدهرت فيه الثقافة والتعليم وعرفت البلاد في مجدها الحضاري، الفكري والعلمي، ويعود هذا إلى نمو الحركة التعليمية التي ساهمت في ظهور جيل من العلماء الكبار الذين قادوا المسيرة العلمية في هذا العصر إلى الأمام، ومماميز المغرب الأوسط خلال هذه الفترة أن التعليم كان منتشرا في مدنه وقراه بشكل واسع وبكل مستوياته[1]، فأدت كل من المدارس والمساجد والكتاتيب والزوايا دورها فيه[2] وقد أرسى أمراء الدولة الحمادية انطلاق الحياة الفكرية في عصرهم بدعائهم أهمها:

- الحماديون لم يقيموا دولتهم على أساس الأفكار الدينية والعقائدية، لذلك لم يفرضوا على المفكرين من الأدباء والكتاب والشعراء والعلماء في دولتهم أن يتقيدوا بوجهة نظهر معينة.
- احتضن بلاط هؤلاء الأمراء العلماء على اختلاف مستوياتهم وأفكارهم، كما سمح الحماديون بتدريس آراء وأفكار المذاهب على اختلافها احتراما لحرية الفكر.
- أوجد الحمّاديون أكبر قاعدة فكرية وثقافية عرفتها بلاد المغرب الأوسط منذ الفتح الإسلامي، فانتشرت المعاهد العلمية والمساجد والزوايا والبيوت كمراكز للعلم والثقافة والتكوين.
- لم يضع الحماديون أمام العلماء المغاربة وغيرهم من علماء الأندلس وأدبائهم المهاجرين إلى بلاد المغرب الأوسط أية عوائق تعوق إقامتهم في ربوع الدولة الحمادية، فتمتعوا بكل المميزات التي كان يتمتع بها نظرائهم من علماء المغرب الأوسط[3].
- وقد نتج عن هذا الجو العلمي تطعيم الحركة الفكرية في العهد الحمادي برصيد هائل ضخم من الثقافة الأندلسية والمشرقية، فتمكن بنو حماد بهذه الدعائم الأربعة من تنمية

1- عبد الحميد حاجيات وآخرون، **الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني**، ج3، وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص437.

2- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري(16-20م)**، ج1، ش و ن ت، الجزائر، 1981م، ص437.

3 - بن قربة، المرجع السابق، ص165.

الحركة الفكرية وتعميم جذورها في المغرب الأوسط حتى صارت مدينتنا القلعة وبجاية من أكبر حواضر الفكر والعلم إلى جانب كونهما المركزان الرئيسان للدولة.

1- نظام التعليم:

- مراحل التعليم:

يُعد النظام التعليمي الإسلامي أول من قرر المراحل التعليمية الثلاث من ابتدائي وثانوي وعالي، مع تداخل ملحوظ بين هذه المستويات في النواحي التي لا توجد فيها مدارس وجامعات متخصصة[1].

وقد سار التعليم في المغرب الأوسط خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين على هذا النظام، حيث أن في المرحلة الابتدائية الأولى كان التعليم يقتصر فيها على قراءة القرآن والكتابة، وتحفيظ القرآن للصبيان ويتم ذلك في الكتاتيب والمساجد والزوايا،وكان المعلّم حريصا كل الحرص على تحفيظ القرآن للصبيان، وتعليمهم الهجاء، والشكل والخط الحسن، والقراءة الحسنة، ثم يتفقد حفظهم للقرآن، هذا إضافة إلى تعليمهم أمور العبادة ككيفية الوضوء والصلاة، والتشديد عليهم من أجل تعلمها[2].

وقد استحسن عبد الرحمن ابن خلدون هذه الطريقة في المرحلة الابتدائية من التعليم وحبّذها، فرأى أن تعليم القرآن الكريم هو أصل التعليم، وهو أول ما يجب تعلمه وتعليمه للولدان، لأن به يبني ما يحصل بعد ذلك من الملكات، وأورد بأن أهل المغرب كانوا يقتصرون على تعليم أولادهم تحفيظ القرآن، وقراءاته المختلفة والكتابة، وأحيانا يضيفون إلى ذلك شيئا من مدارس الحديث أو الفقه أو الشعر[3]، قبل أن يحذق الصبي في قراءة القرآن ويجاوز سن البلوغ.

---

1 - عبد المجيد مزيان، **الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل الإستعمار**، مجلة الثقافة، السنة الخامسة عشر، وزارة الثقافة والسياحة، ع 9، 1985م، ص 40.

2- ابن خلدون، المقدمة، ص، ص740، 741.

3- عبد المجيد مزيان، المرجع السابق، ص42.

هذا السبب هو الذي جعل أهل المغرب أقوى على حفظ القرآن ورسمه من سواهم، وعُدّت هذه المرحلة الابتدائية في تعليم مبادئ العلوم، وحفظ القرآن، المرحلة التي تضمن للمتعلم الخروج من الأمية كتابة وقراءة واعتقادا.

أّما مرحلة التعليم الثانوي العالي فقد كانت دروسها تزاول في المساجد الجامعة والمدارس فكان المسجد الذي هو منطلق النظام الجامعي أنذاك[1] يحتوي على نوعين من الثقافة: الأولى عالية خاصة بطلاب العلم، والثانية عامة مخصصة للعامة.

هذا وقد كان العلماء المشاهير، يتولون التدريس في الجوامع الجامعة، وفي المرحلة الثانوية كان الطلاب يقبلون على دراسة تفسير القرآن، والنحو والفقه والأدب فينالون بذلك بضاعة وافرة تمكنهم من مزاولة التعليم العالي وبلوغ المستوى اللائق، ومعرفة دينهم والإلمام بمختلف العلوم الدينية والأدبية والعقلية.

وفي المرحلة الأخيرة من التعليم أي المرحلة العالية، كان الطلاب الذين يودّون التخصص في العلوم يطرقون باب العلوم الدينية خاصة الإلمام بتفسير القرآن والإطلاع على علومه من قراءات ورسم وغيرها، وكذا معرفة علوم الحديث والفقه- المالكي- إضافة إلى معرفة العلوم العقلية ذات الصلة بالعلوم الدينية كعلم الفرائض الذي كان يدرس مقرونا بالحساب أي نظريا وتطبيقيا[2]، كما يلم بعلوم اللغة العربية وآدابها وغيرها من العلوم بمزيد من التعمق والتحليل.

وكان للطلاب في هذه المرحلة حق اختيار معلميهم، وأوقات دروسهم ومدة إقامتهم في الجامع الذي احتفظ بهذا النوع من التعليم خاصة في المساجد المشهورة كالجامع الأعظم بتلمسان

1- مولود قاسم نايت بلقاسم، **المسجد جامع وجامعة**، مجلة الأصالة، ع 47/46، 1977م، ص- ص3-5.

2- عبد المجيد مزيان، المرجع السابق، ص42.

الذي كان شبه جامعة على النمط القديم، وجامع الزيتونة والقرويين بفاس، وجامع غرناطة بالأندلس والأزهر بمصر[1].

2- طرق التدريس:

أما بخصوص طريقة تدريسهم فقد كانت تتمثل في نوعين من التعليم:

أ- طريقة التدريس بالرواية:

ويراد بها العلوم التي يتوصل إلى معرفتها بالرواية والسماع[2]، اُعتمدت هذه الطريقة في الكتاّتيب حيث كان المعلم يجلس في الوسط، والصبيان حوله وتقوم هذه الطريقة على أساس تدريس كتب مختلفة من شيوخ أجلاء مجازين من شيوخ مشهورين، وبعد فهم المعاني والتمكن من ذلك يلقونها على تلامذتهم تلقينا صحيحا.

ب- طريقة التدريس بالدراية:

وهي طريقة تقوم على أساس طرح الأسئلة والمحاورة والمذاكرة حتى يفهم الطالب[3]. انتقلت هذه الطريقة من إفريقية إلى المغرب الأوسط عن طريق ابني الإمام[4] وعمران المشدالي[5]، وهي تعتمد على التركيز والحفظ، حيث كان المتعلم هنا يقوم بدور محوري في الوصول إلى

1- عبد الحميد حاجيات وآخرون، المرجع السابق، ص438. وأيضا: مولود قاسم نايت بلقاسم، المرجع السابق، ص- ص3-5.

2- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص262.

3- أبو العباس أحمد بن احمد بن عبد الله الغبريني، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تح: رابح بونار، ش و ن ت، الجزائر، 1970م، ص66.

4- ابنا الإمام: عرف عنهما أنهما كانا يتركان التقليد ويسيران إلى الإجتهاد. أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، نشره محمد بن أبي شنب وقدم له عبد الرحمان طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص124.

5- ابن خلدون، المقدمة، ص740. وأيضا: محمد عادل عبد العزيز، **التربية الإسلامية في المغرب أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ت، ص- ص15-17.

المعلومات، واقتصرت مهمة المعلمين على التوجيه وإدارة المناقشات والمناظرات، وقال ابن خلدون عن هذه الطريقة: "وأيسر طرق حصول الملكة وإنما يكون بفتق اللسان بالمحاورة، والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها..." [1].

وكان الطلاب لا يعقدون حلقات الدروس في أماكن التعليم إلا حول معلم مشهور شُهد له بالعلم والصلاح فيلتفون حوله، وينهلون منه مختلف العلوم[2] ومن كان يرغب في أن يتضلع في العلوم، كان يلازم معمله أو شيخه في كل الأوقات تقريبا، ولم يتوقف العلماء بالمغرب الأوسط عند هذا الحد بل اجتهدوا في البحث على أنجح الطرق التعليمية التي تمكنهم من نشر العلوم وتطهير عقول الناس.

3- الرحلة:

تعد الرحلة إحدى الوسائل لنقل العلوم والمعارف من بلد إلى آخر، لذا كان التجوال في سبيل الدراسة والعلم أمرا شائعا بين طلاب العلم في المغرب الإسلامي[3]، حيث لم تقف أمام طلبة العلم حدود تمنعهم من التّرحال والاستزادة منه، ولقاء الشيوخ والمعلمين المشهورين في مختلف أنحاء بلاد العالم الإسلامي، وقد عَدَّ عبد الرحمن بن خلدون الرحلة في طلب العلم من الأمور التي على طالب العلم الاعتناء بها من أجل إتمام معارفه وتقويتها والتحكم أكثر في العلوم، وقد أرجع ذلك إلى أن البشر يأخذون معارفهم إما علما وتعليما وإلقاءً وإما محاكاة وتلقينا، وأن الإكثار من الشيوخ يُعدّ أفضل للطالب من أجل تمييز العلوم وتصحيح المعارف زيادة على أخذ العلم من منابعه[4].

1- ابن خلدون، المقدمة، ص743. وأيضا: محمد عادل عبد العزيز، المرجع السابق، ص14.

2- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص34.

3- محمد عادل عبد العزيز، المرجع السابق، ص30.

4- ابن خلدون، المقدمة، ص605.

وكان شيخ ابن خلدون محمد بن إبراهيم الآبلي[1] قد أشاد بفضل الرحلة واِعتبرها أصل العلم[2]، وبهذا تترسخ المعارف أكثر في ذهن الطالب وتساهم بقدر كبير في نضوج فكره، وكلما زاد عدد الشيوخ الذين يلتقي بهم الطالب كلما عظُمت فائدة الرحلة[3]، إذ أن رحلاتهم كانت إلى مختلف الحواضر العلمية الكبرى أنذاك سواء منها المغربية كفاس ومراكش وبجاية أو المشرقية كدمشق وبغداد.

وقد اجتمعت مجموعة من العوامل ساعدت على نشاط الرحلة العلمية تمثلت في:

- حرية التنقل بين مختلف أقطار المغرب والأندلس.
- حفاوة استقبال طلبة العلم أينما حلوا، وتوفير لهم أماكن الإقامة والتكفل بهم عند الحاجة تطبيقا لما أوصى به الإسلام من الاهتمام بطالب العلم[4].
- بساطة شروط الالتحاق بالمراكز التعليمية وعدم تميزها بين طلاب البلاد الأصليين والوافدين عليها من مختلف الأمصار، لا عرقيا ولا مذهبيا.
- ترحيب الشيوخ بطلاب العلم الوافدين عليهم.
- تمتع الطلبة بالحرية المطلقة في اختيار معلميهم، وكذا الانتقال من شيخ لآخر لإتمام التعليم[5].

1- إبراهيم الآبلي: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني معروف بالآبلي، كان أصله من جالية شمال الأندلس النازلة على تلمسان، ولد سنة681هـ/1282م، سافر إلى المشرق و استقر بافريقية فترة ثم مكث ببجاية بدعوى حاجة من طلبة العلم. ابن خلدون، العبر، ج7، ص465. وأيضا: ابن مريم، المصدر السابق، ص- ص214-219.

2- أبو القاسم محمد بن الشيخ بن إبراهيم الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، ج1، تح: محمد أبو الأجفان و عثمان بطيح ، المكتبة العتيقة، تونس، 1982م، ص96.

3- ابن خلدون، المقدمة ، ص606.

4- عاشور بوشامة، **علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس (626هـ-981هـ/1128م-1573م)**، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1991م، ص446.

5- نفسه، ص447.

- فوائد و أهداف الرحلة:

إن للرحلة العلمية فوائد جليلة كان الطلبة يسعون للحصول عليها منها:

- أخذ العلم مباشرة عن الشيخ، والجلوس إليه أهمية كبرى في التعليم، فالطالب لا يكتفي بقراءة مصنفات المعلّم، بل لابد من أن يقرأها عليه أو يسمعها منه حتى يعد ثِقَة في المادة وحجّة في عمله، وبدون ذلك لا تصلح روايته ولا يوثق بقوله[1].
- التعرف على مناهج التعلم والمستّجدات الطارئة على التخصصات العلمية المختلفة والتحكم فيها.
- التعرف على البلدان والشعوب وثقافاتهم وتقاليدهم وإمكانية التبادل الثقافي بين المسلمين[2].
- أخذ الإجازات من شيوخ متعددين وفي تخصصات علمية مختلفة هذا ما يدعم المصداقية العلمية للطالب مما يسهل له طريق تولي الخِطط المختلفة في الدولة كالتدّريس ووظائف إدارية عند عودته لبلده.

كما كان للشيوخ دور كبير في تحفيز الطلبة على الارتحال لطلب العلم لذا توجهوا نحو كل الحواضر في العالم الإسلامي العلمية أنذاك[3]، وقد سجلت كتب التاريخ والتراجم رحلات علماء المغرب الأوسط خلال هذه الفترة بِاتجاه الحواضر العلمية أنذاك بهدف الإطلاع على مختلف العلوم خاصة علم الحديث الذي يتطلب البحث عن أسانيد رواياته، فنجد أبو عبد الله المقري ألف كتابا في الرحلة بعنوان "نظم اللئالي" حيث استعرض فيه رحلته عبر مراكز المغرب الثقافية فذكر

1- ابن مريم، المصدر السابق، ص217. وأيضا: محمد عادل عبد العزيز، المرجع السابق، ص30.

2- عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، **الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها**، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، 1996م، ص-ص15-25.

3- محمد بوشقيق، **تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين 8 و9هـ/14-15م**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان، 2011م، ص77.

الأعلام الذين أخذ عنهم أو تذاكر معهم انطلاقا من تلمسان فبجاية، إفريقية ثم المغرب....، إضافة إلى أن الرحلة العلمية ساهمت في توطيد التواصل الثقافي والحضاري لبلاد المغرب الأوسط مع غيرها من دول المغرب والأندلس والمشرق.

كما ساهمت فريضة الحج في تنشيط الرحلات وتعزيز التواصل الثقافي بين هذه البلاد وغيرها، حيث كانت هناك ركبّ للحجاج يخرج سنويا من المغرب الأقصى مكونا من حجاج الأندلس والمغرب، وعند مروره بالمغرب الأوسط ينظم إليه حجاجه، ومنها إلى الأماكن المقدسة بالحجاز[1]، وكان هذا الركب يتكون من فئات المجتمع المغربي والأندلسي وضم الكثير من العلماء وطلبة العلم، وبهذا يمكن القول أن الرحلة هذه (فريضة الحج) أدت دورا ثقافيا كبيرا احتل المقام الثاني بعد الدور الديني[2].

ويعتبر البحث عن سند التعليم و الحديث من أهداف الرحلة العلمية الأساسي، وقد مثله أهل المغرب الذين كانوا باعة في إسناد كتب علومهم خاصة الحديث. إذ ارتبط تاريخ المغرب الإسلامي بالمشرق منذ المراحل الأولى للفتح فأصبح يؤثر ويتأثر به في كل جانب خاصة مايتعلق بالعلم و زيادة المشيخة[3]، وكذا الاستفادة من طرق تدريسه.

4- الإجازة العلمية:

لم يكن طالب العلم يكتفي بحفظه وما تعلمه بل كان يسعى للوصول إلى مكانة العلماء المشهورين، والحصول على الإجازات في مختلف العلوم، ومن أشهر العلماء في ذلك العصر. والإجازة العلمية هي بمثابة الشهادة التي يسلمها المعلم أو الشيخ إلى طالبه أو مستجيره، وأصلها،

1- ابن مرزوق الخطيب، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تح: ماريا خيسوس بغيرا، ش و ن ت، الجزائر، 1981، ص- ص383-385.

2- عاشور بوشامة، المرجع السابق، ص468.

3- ابن خلدون، المقدمة ، ص602.

كما قال الونشريسي نقلا عن الأندلسي أبي سعيد بن لُبّ الرواية[1]، وهي إذن شخصي من طرف الشيخ وتفويض منه للطالب بممارسة التعليم أو الفتوى[2]، وقد كان هذا النظام(الإجازة) منتشرا في دولة بني حماد، وأصبح بمرور الزمن عادة متوارثة جيلا بعد جيل.

وقد ارتبطت الإجازة ارتباطا وثيقا بعلم الحديث[3]، نظرا لما له من أهمية في حفظ رواياته التي بفضلها يتم هذا العلم ويكتمل، وبدونها يكون ناقصا لا محالة[4]، ولهذا تشدد علماء الحديث في منح الإجازة إلاّ للطالب النجيب الذي ألم بأسانيد كتب هذا العلم وحفظ رواياته، ومعرفة أفاضل الأئمة من صحابي وتابعي وفقيه، وكان من مهمات طالب العلم خلال تلك الفترة أن يكون ملما بتاريخ ولادة ووفاة رواة الحديث وعلمائه، كما يكون محيطا بكتبه وأسماء مؤلفيها ومعرفة طبقات الفقهاء وأزمانهم[5].

وقد انقسمت الإجازة إلى قسمين: إجازة خاصة وعامة، الخاصة هي التي يمنحها الشيخ لطالب درس عنده كتابا معينا أو فنا خاصا من فنون العلم[6]، والعامة هي التي تكون عامة لكل ما درّسه الشيخ من فنون العلم لطالبه، وقد انتشر هذا النوع من الإجازات حتى طغى على الإجازة

1- أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، ج11، إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص15.

2- روبار برنشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى القرن 15**، تر: حمادي الساحلي، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، ص379.

3- علي بن محمد القرشي الأندلسي القلصادي، **رحلة القلصادي المسماة تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب**، دراسة وتح: محمد أبو الجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م، ص59.

4- يوسف الكتاني، **مدرسة الإمام البخاري في المغرب**، ج1، دار لسان العرب، بيروت، د ت، ص130.

5- أبو العباس أحمد بن حسين علي بن الخطيب المعروف بابن قنفذ القسنطيني، **كتاب شرف الطالب في أنس المطالب**، تح: محمد حجي ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات، مطبعة دار الغرب للتأليف والنشر، الرباط، 1976م، ص90.

6- عباس بن إبراهيم المراكشي، **الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، ج2، ط1، المطبعة الجديدة، فاس، 1936م، ص38.

الخاصة وسبب ذلك أن الطالب كان يسعى للحصول عليها لأنها شاملة لمختلف العلوم التي يمكن بها أن يحقق مكانة و يظهر بمظهرها بين أهل العلم[1].

والإجازة كانت تؤخذ على طرقيتين:

إجازة السماع: وهي أقوى الإجازات، حيث يداوم الطالب على العلم بالحضور عند شيخ حتى يكمل ما أراد أن يتعلمه منه، وبعد ذلك يمنحه وثيقة بخطه يشهد فيها على ما يُجيزُ به طالبه

وهذا النوع من الإجازة كان إما فرديا أو جماعيا فبإمكان الشيخ أن يخبر مجموعة من طلبته المستمعين له في آن واحد وهذا الأمر كان يتم في حلقات السمع بالجوامع[2].

إجازة المكاتبة: وفيها يقوم المستجير بمراسلة الشيوخ الكبار، فيطلب منهم مِنحة الإجازة في بعض أو كل ما يحملونه من المعارف، كما كان هذا النوع من الإجازة يُطلب شفاهة كأن يطلبها الطالب من بعض الشيوخ لذويه أو بعض أصحابه مباشرة.

وبالرغم من هذا فلم تكن بالأهمية اللازمة لمزاولة التعليم والفتوا كما جاء في جواب القاضي أبي عثمان سعيد العقباني: "وأما توقف التعليم على كتب الإجازة فلم يقله أحد وإنما هو كالمفتي لا يتوقف على إجازة"، كما أورد كذلك في موضع آخر: "أما العلم فلم يقل أحد بِافتقار الفتيا أو التعليم لإذن، نعم لا يحلُّ لأحد أن يأخذ مسألة علم إلا ممن عرف علمه ودينه" [3].

1- ابن مريم، المصدر السابق، ص،ص19،20.

2- عاشور بوشامة، المرجع السابق، ص461.

3- الونشريسي، المصدر السابق،ج8، ص236.

المبحث الثالث: المؤسسات التعليمية

علينا أن نذكر أنه يستحيل رسم صورة كاملة عن مظاهر الحياة الفكرية في دولة بني حماد، وذلك لانعدام مصادر متخصصة في هذا المجال، وإن وجدت فهي مصادر تراجم والتي ذكر فيها تراجم بعض الأعلام أو الإشارة إلى المؤسسات التعليمية في كتب الموسوعات واِستطعنا أن نبني من خلالها صورة عن الحياة الثقافية والعلمية ومن بين هذه المؤسسات المساجد والزوايا والكتاتيب والمكتبات.

1- المساجد:

لقد ارتبط تاريخ التربية الإسلامية بالمسجد ارتباطا وثيقا قبل تأسيس المدارس والزوايا حيث قامت حلقات الدرس فيه، منذ أن نشأ لأول مرة، واستمرت كذلك على مرّ السنين والقرون، وفي مختلف أقطار العالم الإسلامي ودون انقطاع[1].

أما العامل الأساسي الذي جعل المسجد يؤدي دورا تربويا هاما، هو أن الدراسات الأولى كانت تهتم بتعليم الإسلام بِاتخاذه مكانا لدراسة القرآن الكريم والفقه والأدب[2]، هذا إضافة إلى وظائف أخرى، حيث يجتمع الناس فيه للعبادة وعقد حلقات البحث والمناظرات والاستماع لدروس الوعظ والإرشاد والإفتاء[3]، كما كان للمسجد دور فعال في الحياة السياسية والاجتماعية والدينية، وأدى دورا إداريا تمثل في عقد عقود الزواج، والصفقات التجارية[4].

والمغرب الأوسط كغيره من بقاع العالم الإسلامي الأخرى اِنتشرت فيه المساجد والجوامع منذ أن فتحه المسلمون في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة/ السبع الميلادي.

1- أحمد شلبي، **تاريخ التربية الإسلامية**، ط5، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1976م، ص102.

2- محمد منير مرسي، **التربية الإسلامية، أصولها وتطورها في البلاد العربية**، نشر عالم الكتب، القاهرة، 1983م، ص221.

3- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص34.

4- محمد منير مرسي، المرجع السابق، ص222. وأيضا: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص34.

واستمرت العناية بتشييد المساجد فيه إلى العهد الحّمادي الذي عرف ازدهار الحركة المعمارية بشكل كبير.

والجدير بالذكر أن مدن المغرب الأوسط الكبرى احتوت على الجوامع التي أصبحت مراكز إشعاع ثقافي وعلمي فيها، أما أريافه وقراه فقد شُيّدت فيها المساجدالصغيرة للعبادة، وبُنيت الكتاتيب بجانبها لتعليم الصبيان القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، إذ نجد حماد عندما اختط القلعة استكثر فيها المساجد، ولم يكن ثمة مسجد في مدينة خاليا من المدرسين[1]، وقد عرف في المغرب الإسلامي (المسيد)هو ملحق كان يُفرد للناحية التعليمية بالمسجد، وقد تطور هذا المسيد في القرن الخامس الهجري فِاستقل بنفسه عن المسجد، وصار عالما بذاته من حيث البناء والمقصد[2]، وهذا التطور لم يمنع المسجد من أن يبقى محل تعليم، إلاّ أنه ارتفع طبقة فصار بمثابة دار للتعليم الثانوي أو العالي.

ولقد كان ببجاية ما يربوا عن خمسين مسجدا منها مسجد الإمام المهدي، ومسجد الريحانة ومسجد النطاعين وهم صانعوا الزرابي من الأديم، إضافة إلى الجامع الواقع في وسط المدينة والذي يحيط به عشرون ألف بيت[3]، ومن بين المساجد التي اشتهرت أيضا المسجد الجامع الذي يعتبر القاعدة الأولى للمؤسسات التي تنوعت وتطورت، حيث يعتبر هذا المسجد من أهم المنشآت العلمية العامة في المدينة الإسلامية باعتباره المركز الرئيسي في حياة المجتمع بالإضافة إلى وظيفته الدينية والتعبدية والعلمية، فكان مركزا هاما.

1- أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، ط2، دار المعارف، الجزائر، 1963، ص81.

2- عثمان الكعاك، **محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب العربي**، طبع معهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية، 1957م، ص، ص71، 72.

3- البكري، المصدر السابق، ص361.

2- الكتاتيب:

تعد الكتاتيب من أقدم المراكز التعليمية في التاريخ الإسلامي ففيها يتم تعليم القرآن الكريم والكتابة للصبيان[1]، وهناك من أطلق عليها مصطلح مكتب[2]، ودخل هذا النوع من النظام التعليمي لبلاد المغرب مع الفاتحين الأوائل[3]، وقد تميزت كتاتيب القرون الأولى للإسلام ببساطة بنائها، كما ازداد عددها بتوسع العمران وكثرة تأسيس المدن الجديدة بالمغرب الإسلامي[4]، وكان يقوم بإنشاء هذه الكتاتيب الميسورين في غالب الأحيان، وذلك نظرا لبساطة بنائها أو استئجار منازل أو غرف تُتَخذ لتعليم أولادهم، أو يقوم بنائها أحد الأفراد أو جماعة من الناس احتسابا لوجه الله تعالى، وطلبا لأجر الآخرة[5].

وتميز الكتّ منذ ظهوره ببساطة أثاثه حيث كان يُ فرش بالحصير المصنوع، من الحلفاء أو الدوم التي يجلس عليها الصبيان مشكلين حلقة حول المعلم، هذا إضافة إلى أدوات أخرى تستعمل في تعليم الأطفال كالألواح الخشبية والأقلام المصنوعة من القصب وقطع حجر الصلصال، وأدوات من الصبغ والصوف وجرار الماء، وبعض الكتب كالمصاحف وكتب النحو وغيرها[6]، مع

1- محمد بن مكرم علي الأنصاري ابن منظور، **لسان العرب**، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 2000م، ص- ص13-18.

2- محمد بن سحنون، **كتاب آداب المعلمين**، ط2، تح: محمد عبد المولى، ش و ن ت، الجزائر، 1981م، ص- ص61-64.

3- إبراهيم حركات، **مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ- 15م**، ج1، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000م، ص- ص15-19.

4- عبد الحق الكتاني الفاسي، **التراتيب الإدارية أو كتاب نظام الحكومة النبوية**، ج2، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت، ص293.

5- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص156.

6- محمد نسيب، **زوايا العلم والقرآن بالجزائر**، دار الفكر، الجزائر، د ت، ص19.

العلم أن مهمة تعليم الصبيانفي الكتّاب كانت موكولة لمعلم يتعاقد مع أوليائهم على فترة الدراسة وكذا دفع الأجرة[1].

كان التعليم الذي يتم في الكتاّب تعليم أولي، حيث منه ينتقل التلميذ إلى مزاولة التعليم في الزوايا، والمساجد الأخرى لإكمال دراسته الثانوية، هذا ولم يكن هناك حد فاصل في المستويات التعليمية أنذاك، حيث قام الكتاّب بالتعليم الأولي وبشيء من التعليم الثانوي[2].

أما طريقة التعليم في الكتاّب فقد أشار إليها ابن خلدون في مقدمته: "...فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارسة بالّرسم ومسائله واختلاف جملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه، ولا من شعر، ولا من كلام العرب، إلى أن يحذق فيه (أي القرآن) وينقطع دونه، فيكون انقطاعي في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب، ومن تبعهم من قرى البربر..."[3].

هذا وقد أعيب على منهج المغاربة في تحفيظ القرآن للصبيان في الكتاّب دون فهم آياته ومعانيه، حيث أن التلميذ لا يعرف إلاّ ترتيب السور وحفظها دون إدراك معناها ومضمونها[4]، ولقد أعطى ابن عربي طريقة بديلة في تعليم الصبيان، وهي أن يحفظ الصّبي القرآن والشعر والنثر كما يتعلم الخط والنحو، وهو مذهب أهل الأندلس في تعليم الوِلدان[5]، وكان تعليم الكتاّب يجمع بين الذكور والإناث، لكن معظم الإناث يغادرون الكتاتيب قبل الذكور نتيجة تحريضهن لتولي

1- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص151.

2- محمد نسيب، المرجع السابق، ص21.

3- ابن خلدون، المقدمة، ص602.

4- رابح تركي، **التعليم القومي والشخصية الجزائرية**، ط2، ش و ن ت، الجزائر، 1981م، ص263.

5- ابن خلدون، المقدمة، ص602.

مسؤولية الزواج المبكر وتكوين أسرة[1]، ونجد أن معظم الكتاتيب التي أنشأتها الدولة كانت تلحق عادة بالمسجد. وبهذا يخرج الصّبي من الكتاّب بعد حفظه للقرآن وتلقي مبادئ القراءة والكتابة، فكان قسم من التلاميذ يتوجه إلى الحياة العلمية إلى جانب والده أو يتعلم حرفة يدوية أو غيرها تهيئة لكسب لقمة العيش[2] بينما قسم آخر يواصل مساره التعليمي في مراكز أخرى ألاّ وهي المساجد.

ولقد كانت هذه الكتاتيب أشهر أنواع التعليم الإبتدائي ويبدوا أنها قريبة من عمل المسيد وإن كانت تتمتع بنوع من الملكية الخاصة، وقد كانت القلعة عامرة بهذه الكتاتيب التي تعلم الصبيان، ومن معلميها البارزين "أبو حفص الغديري"[3].

ويبدوا أن ما عرف في بلدان المغرب باسم "الشريعة" كان يقوم أحيانا مقام الكتاب "خيمة مدرسية عند البدو"[4]، إلى جانب كونه مصلى كبير تقُام فيه الأعياد وربما صلوات الجمع، ومن المحتمل أن الشريعة كانت محل تعليم البدوي في مقابل المسيد الذي كان محل تعليم الحضري، وهي تنتقل بانتقال الحي وفق ضروريات الانتجاع أو دواعي تزاحم القبائل، فمع بلوغ الدولة الحّمادية مرحلة النضج والازدهار ظهرت إلى الوجود مؤسسات تعليمية، ولقد عرف علماء المغرب الأوسط يومئذ منزلة الاختصاص فكانوا يجتهدون في التخصص في العلوم والتبريز فيها[5].

1- إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص19.

2- نفسه، ص22.

3- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص253.

4- ليفي بروفنسال، **الإسلام في المغرب والأندلس**، تح: عبد العزيز سالم، مكتبة النهضة المصرية، سلسلة الألف كتاب، 1956م، ص89.

5- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص384.

3- الزوايا:

أما الزاوية فهي مكان ذو طابع ديني وثقافي وتعليمي، تُمارس فيه العبادات كالقيام بالصلاة هذا إضافة إلى حلقات الدرس الذي يُلقى على الطلاب، كما كانت تُخصص لاستقبال عابري السبيل وإطعام الفقراء والمساكين فضلا عن اتخاذها مكان من قبل بعض الزُهاد للانقطاع للعبادة و الهروب من الدنيا وزخرفها[1]، وهذا ما أشار إليه ابن مرزوق الخطيب قائلا:" "إن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدّة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين..."[2].

وقد أنشأ هذه الزوايا إما أهل الخير ورجال الطرق الصوفية من أموالهم الخاصة، وكانت إدارة ورعاية أوقاف الزاوية توُكل لِقّيم ومساعدين له، ولم تكن الزاوية ملكا للأشخاص ولا للدولة بل كانت أماكن تعليمية واجتماعية عامة تستمد استقلاليتها من أوقافها[3].

ولقد أدت الزاوية في بادئ الأمر مردودا رياديا، فساهمت في نشر العلم وأوكلت لها مهمة تحفيظ القرآن الكريم، وتدريس مختلف العلوم سواء النقلية أو العقلية خاصة الفرائض والحساب[4]، وقد عهد بالتعليم في الزاوية لكبار العلماء، وكان الطلبة يفدون على الزاوية من أجل التعلم فينهلون من معارفهم ويتمتعون بالإقامة في بيوتها[5].

وقد كانت كثيرة بالمغرب الأوسط بين كبيرة وصغيرة، ويعرفها عبد الحليم عويس بقوله: "عبارة عن مجموعة من المباني الفاخرة الكثيرة يتوسطها ضريح الشيخ المؤسس وهو قبة كبيرة

1- محمد نسيب، المرجع السابق، ص27-30.

2- ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص- ص411-413.

3- عاشور بوشامة، المرجع السابق، ص، ص425، 426.

4- وسيلة بلعيد بن حمدة، **الزاوية ودورها التربوي والاجتماعي**، الهداية، ع الرابع، السنة 19، 1995م، ص29.

5- الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص292.

مفروشة بالزرابي مملوءة بالمباخر والمجامر والأعلام"[1]، وقد كانت تنتشر بكثرة في دولة بني حماد لاسيما القلعة[2].

4- المكتبات:

كما اهتمت الدولة الحّمادية بإنشاء المكتبات، فالقلعة شهدت نوعين من المكتبات:

العامة: والتي ستجسد بشكل جلي في مكتبة جمع المنار التي كانت عبارة عن مكتبة مليئة بالكتب المحمولة إليها من أقطار المغرب وبلاد المشرق والأندلس[3]، وكذا المنقولة عن تدريس أئمة وفقهاء الجامع[4].

أما النوع الثاني: من المكتبات فيتمثل في **المكتبات الخاصة،** ودليلنا على ذلك نص قّيم أورده أبي عبد الله بن محمد عبد الكريم التميمي(603-604هـ/1206-1207م) في عرض ترجمته لابن الرمامة (567هـ)، حيث أن ابن هذا الأخير دخل على الفقيه ابن النحوي يوما في منزله فوجد في بيته كتب وجوانب البيت من جهاته كلها مملوءة ألواحا مرتفعة بعضها فوق بعض، وعليها الكتب، وبين يديه كرسي عليه أسفار جديدة التفسير، قال: فقلت له: ما هذه الأسفار التي بين يديك؟ فقال لي: هذا "كتاب الأحياء" لأبي حامد الغزالي، ولو اقتنيته قبل هذه الكتب لم أكسب كتابا منها[5].

1- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص253.

2- الطاهر بونابي، **التصوف في الجزائر خلال القرنيين 6هـ-7هـ/12 و13م**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، ص237.

3- عبد المفتاح مقلد الغنيمي، **موسوعة تاريخ المغرب العربي**، ج2، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994م، ص341.

4- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص254.

5- أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي، **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**، تح: محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 2002م، ص، ص172، 173.

فهذا النص القيم يرسم لنا صورة عامة عن النوعية والكمية التي كانت تزخر بها المكتبات الخاصة، وتقودنا إلى تصور نوع المكتبات الخاصة التي كانت بلا ريب موجودة عند خاصة الفقهاء والعلماء الصوفية.

ولقد لجأ بعض العلماء في العهد الحّمادي عند الضرورة إلى التعليم في منازلهم مع أن بعضهم يعتبرها لا تصلح للتعليم لافتقارها للهدوء والراحة[1]، ورغم هذا فقد ظلت منازلهم عامرة بالطلبة في كل الأوقات.

وكانت هذه البيوت محل اهتمام طلبة العلم من كل الأمصار التي ينزلون فيها، ويحضرها كبار العلماء والفقهاء والأغنياء من الناس، وكذا الطلبة المتفوقين في الدراسة سواء في المساجد أو غيرها.

ويمكن القول أن هذه البيوت والمجالس كانت بمثابة ملتقيات للفكر، حيث يتبارى فيها العلماء[2]، بإلقاء الدّروس والتفنن في الإبداع فيها والعمل للوصول إلى مستويات راقية، وبهذا ساهمت في تحسين مستوى كثير من العلماء والطلبة الذين بذلوا كل طاقتهم لإتقان مختلف العلوم والتبحر فيها.

1- محمد حسين محاسنة، **أضواء في تاريخ العلوم عند المسلمين**، ط1، دار الكتاب الجامعي، العين الإمارات العربية المتحدة، 2001م، ص144.

2- شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني المقري، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، ج3، ضبطه وحققه وعلق عليه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1939م، ص ص27،28.

الفصل الثالث:

الإنتاج العلمي والثقافي

- المبحث الأول: المراكز الثقافية
- المبحث الثاني: العلوم النقلية واللسانية
- المبحث الثالث: العلوم العقلية والاجتماعية

لقد ازدهرت الحياة التعليمية ازدهارا كبيرا، تدلنا عليه المكانة العلمية التي احتلتها هذه الدولة (وخاصة بجاية)، بحيث أصبحت كعبة الشعراء ومقصد طلاب العلم، فقد ارتحل إليها ابن حمديس الصقلي، وأبو الفضل النحوي، وغيرهما ممن غضت بهم العاصمة الحمادية، وقد برز الفقهاء والعلماء والشعراء والمؤرخون والأطباء والرياضيون ببجاية وأشير والقلعة والمسيلة[1].

وقد اعتذر الغبريني بعد أن أورد مجموعة من علماء أواخر المائة السادسة بقوله: "وقد بقي خلق كثير من أهل المائة السادسة ممن لهم جلال وكمال، ولكن شرط الكتاب منع من ذكرهم"، ويتابع شهادته وقد مضى من قول الشيخ أبي علي المسيلي قوله: "أدركت ببجاية ما نَيِفُ عن تسعين مفتيا، ما منهم من يعرفني، وإذا كان المفتون تسعين، فكم يكون من المحدثين، ومن النحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم ممن لا يدركه...، لقد كان الناس على اجتهاد وكان الأمراء لأهل العلم على ما يراد"[2].

ويقسم ابن خلدون العلوم التي يخوض فيها البشر إلى نوعين:

النوع الأول: علم طبيعي يهتدي إليه الإنسان بفكره وعقله.

النوع الثاني: علم نقلي يؤخذ عمن وضعه.

وانطلاقا من هذا يني ابن خلدون القسمة الثنائية للمعرفة الإنسانية، حيث القسم الأول: يخص العلوم العقلية التي يصل إليها الإنسان بفكره ومداركه البشرية ويتطرق لموضوعاتها، والبحث عن براهينها معتمدا على عقله ليصل إلى التمييز بين الصواب والخطأ فيها[3].

1- مبارك الهلالي الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، ج2، مكتبة النهضة، الجزائر، 1963م، ص217.

2- الغبريني، المصدر السابق، ص32.

3- ابن خلدون، المقدمة، ص453. وأيضا: صديق بن حسن القنوجي، **الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم (الجزء الأول من كتاب أبجد العلوم)**، أعده للطبع ووضع فهارسه عبد الجبار زكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978م، ص18.

أما القسم الثاني: فيخص العلوم النقلية الوضعية التي لا مكان فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول

المبحث الأول: المراكز الثقافية

لقد خلفت الدولة الحمادية آثارا وفنونا يشهد لها التاريخ على أن أمراءها كانوا يتمتعون بالحس والكلف في العمارة والفنون والعلوم والآداب.

1-القلعة:

كانت أول خطوة خطاها المؤسس حماد بن بلكين في سبيل تعمير مدينته الناشئة، أن نقل إليها سكان مدينيتي المسيلة وحمزة، بعد أن خربهما وحلت بها كذلك قبيلة بكاملها هي جراوة، وهكذا فتح أبواب مدينته على مصراعيها لكل الراغبين في الاستقرار بها[1].

حيث تعد مدينة قلعة بني حماد من أعظم القلاع التي أسسها المسلمون في تاريخهم، إذ وفق حماد في اختيار عاصمته الأولى سواء من الناحية الجغرافية أو الإستراتيجية فالقلعة تقع في: "سند جبل سامي العلو صعب الارتقاء وهو جبل تاقربست[2]، وأعلى هذا الجبل متصل ببسط من الأرض"[3]، وهو موقع له أهميته الجغرافية والعسكرية وبذلك تكون المدينة في مأمن من هجمات العدو، وفي نفس الوقت قريبة من الأرض الزراعية الخصبة، الأمر الذي ييسر عملية وصول المؤن والأقوات[4]، ويحمي المدينة من جهة الشرق وادي فرج الذي يجري من الشمال إلى الجنوب بين جبلي الرحمة ورزوق اللذين يمتدان على الضفة اليسرى، عرف وادي فرج في العهد الحمادي

1- بن قربة، المرجع السابق، ص262.

2- تاقربست: مفرد قربوس ومعناه السرج، وأعلى جبل تاقربست متصل ببسيط من الأرض ومنه ملكت القلعة. الساحلي، المرجع السابق، ص98.

3- الإدريسي، المصدر السابق، ص109.

4- بن قربة، المرجع السابق، ص259.

باسم وادي جراوة، فهو إذن درعها الواقي من العدو، كما يحميها كذلك من ناحية الغرب قمة جبل القورين الشاهقة 1190م، والتي يفصل بينها وبين جبل الرحمة مضيق يسهل الدفاع عنه.

أما من ناحية الجنوب، فيقع المدخل الوحيد إلى القلعة، وهو عبارة عن طريق كثير التعاريج يساير وادي فرج.

ولقد راعى حماد في اختياره لهذا الموقع جميع الزوايا الإستراتيجية التي ينطوي عليها، خصوصا بعدما استقرت به الأمور في منطقة الزاب والحضنة وأدرك أن هذه المدينة يمكنها أن تقوم بالدور السياسي والاقتصادي والحربي بدل مدينة أشير.

والموقع هذا كان له أهمية وفوائد كثيرة تمثلت في المكان الإستراتيجي الذي يضعها (القلعة) في موقف ملائم للسيطرة على الأجزاء المختلفة من سهول الحضنة[1]، وكذلك وفرة المياه، إضافة إلى سهولة الاتصال بكل من الأقسام الشمالية والجنوبية والغربية الذي ساهم في ازدهار الحركة التجارية.

نجد المؤرخين المسلمين أولو اهتماما خاصا بمدينة حماد وخاصة الإدريسي وابن الخطيب وابن خلدون، حيث أن بحثه أعطى لنا فكرة كاملة عن تخطيط المدينة وتعميرها وتطورها العمراني والاقتصادي والثقافي إذ يقول: "واختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان وتسعين(أي 398هـ) وهو جبل عجيسة، وبه لهذا العهد قبائل عياض من عرب هلال، ونقل إليها أهل المسيلة، وأهل حمزة، وخربهما، ونقل جراوة من المغرب، وأنزلهم بها، وتم بنائها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة، وشّيد بنيانها وأسوارها واستكثر فيها من المساجد والفنادق واستبحرت في العمارة واتسعت بالتمدن ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد، طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق أسوار المعارف والحرف والصنائع بها"[2].

1- بن قربة، المرجع السابق، ص 260.

2- ابن خلدون، العبر، ج6، ص350.

وبهذا أصبحت القلعة تعيش نوعا من البذخ والترف بفضل الأمن والاستقرار الذين وفرهما أحكامها.

إضافة إلى استفادة القلعة من غزو بني هلال لافريقية، والذي خلف آثارا سلبية على عمران وحضارة المدن هناك، وكان من نتائجه هجرة الأغنياء من التجار والصناع والفنانين والحرفيين والعلماء إليها[1]، وما نتج عنه من انتعاش بشري وتطور اقتصادي وصناعي وعلمي، وفي هذا الصدد يقول البكري بأنها كانت: "مقصد التجار وبها تَحُلُ الرحال من العراق والحجاز والشام وسائر بلاد المغرب، وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة"[2].

أما بخصوص المستوى الحضاري الذي بلغته القلعة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فيصفها الإدريسي ويقول بأنها كانت: "من أكبر البلاد قطرا، وأكثرها خلقا، وأغزرها خيرا وأوسعها أموالا وأحسنها قصورا ومساكن خصبا وحنطتها رخيصة ولحومها طيبة سمينة... والحنطة تختزن بها، فتبقى العام والعاميين لا يدخلها فساد ولا يعتريها تغيير،وبها من الفواكه المأكولة والنِّعم المنتجة ما يلحقه الإنسان بالثمن اليسير"[3].

وفي عهد الأمير المنصور بن الناصر عرفت القلعة أزهى عصورها وازدهارها الحضاري، إذ قال عنه ابن خلدون: "تأنق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخذ القصور، وإجراء المياه والرياض والبساتين، فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام"[4].

1- بن قربة، المرجع السابق، ص260.

2- البكري، المصدر السابق، ص49.

3- الإدريسي، المصدر السابق، ص- ص109-117.

4- ابن خلدون، العبر، ج6، ص358.

2- بجاية:

لقد تم تأسيس مدينة بجاية كما قلنا سابقا في بداية النصف الثاني من القرنين الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقد كانت في الأصل ميناء بحريا قديما يدعى: صلداي، يرد عليه البحارة، وعندما أسسها الناصر سماها الناصرية.

وقد أسست هذه المدينة: على السفح الشرقي للجبل الذي يشرف على البحر إلى جوار مصب وادي الصومام الكبير غربا، وعندما انتقل الناصر بن علناس إليها عام 461هـ، أسس بها ورشتين لبناء السفن، والمراكب البحرية والحربية والتجارية، وقصرا لزوجته.

توسع عمرانها بعد ذلك واحتوت على اثنان وسبعون مسجدا، ومائة وخمسون ألف ساكن، وقصور وحمامات ودكاكين وكتاتيب وورشات لصناعة الخشب والأدوات النحاسية والحديدية والحلي الفضية، والذهبية، وجلب إليها الماء عبر السواقي، والقنوات، واهتم الفلاحون بها[1].

وكان الشريف الإدريسي أبلغ في إبراز ما وصلت إليه بجاية من رقي وتطور حضاري هائل في منتصف القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي حيث قال: "بجاية في وقتنا هذا (548هـ) مدينة المغرب الأوسط، وعين بلاد بني حماد والسفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع نافقة، وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشذوذ، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، ولها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران وسائر الفواكه بها منها ما يكفي لكثير من البلاد، وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل، والمراكب، والحرابي، لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود، ويجلب إليها من إقليمها الزفت البالغ الجودة والقطران وبها معادن الحديد الطيب، موجودة وممكنة، وبها الصناعات كل غريبة ولطيفة وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة، وهو نهر عظيم

1- يحيى بوعزيز، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م، ص13.

يجاز عند فم البحر بالمراكب، وكلما بعد البحر كان ماؤه قليلا، ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد، وهي قد عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد"[1].

المبحث الثاني: العلوم النقلية واللسانية

1- العلوم النقلية:

ويقصد بها علوم الدين، وهذه العلوم لاقت اهتماما كبيرا، وهي تشمل القرآن والسنة من خلال دراسة التفسير والحديث والفقه، ويتجلى هذا الاهتمام من خلال تأسيس المساجد والزوايا التي كانت المجال الخصب لازدهار هذه العلوم.

أ- الفقه:

هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين، بالوجوب والخطر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقاةٌ من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه[2].

والفقه يتناول كل ما يعترض الإنسان المسلم من القضايا في حياته الذاتية والدينية والاجتماعية والاقتصادية[3]، ويثبت له من الأحكام الشرعية ما يجعله يتصرف معها.

وللفقه فروع منها علم الفرائض الخاص بالمواريث، والحسبة المتعلقة بمعاملات الناس فيما بينهم في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكذا الفتاوى التي يتم بها حل المسائل النازلة على المسلم في حياته الدينية والدنيوية.

ولما نتطرق لموضوع الفقه في المغرب الإسلامي عامة، والأوسط خاصة فمن الطبيعي أننا سوف نتحدث عن الفقه المالكي، وذلك لأن سكان هذه المنطقة اعتنقوا مذهب مالك بن أنس-

1- الإدريسي، المصدر السابق، ص63.

2- ابن خلدون، المقدمة، ص456. وأيضا: محمد بن إبراهيم الأنصاري ابن الإكفاني، **إرشاد القاصد عن أسنى المقاصد في أنواع العلوم**، تح: عبد المنعم محمد عمر، مراجعة أحمد حلمي عبد الرحمن، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت، ص164.

3- وهبة الزحيلي، **أصول الفقه الإسلامي**، ج1، ط1، دار الفكر، دمشق، 1986، ص26.

رضي الله عنه- منذ القرن الثاني الهجري[1]، ورغم ما أصاب هذا المذهب من المحن والقمع لعلمائه من قبل العبيديين في القرنين الثاني والثالث الهجريين[2]، الذين ضيقوا على فقهاء المالكية، وأجبروا أهل المغرب على اعتناق المذهب الإسماعيلي مذهبا دولتهم الرسمي هذا ما دفع سكان المغرب إلى الثورة على هذا المذهب في أول فرصة لهم، فكان لهم ذلك في عهد المعز بن باديس الصنهاجي(404هـ-453هـ)[3]، الذي آثر المذهب المالكي على غيره من المذاهب، فأعلن ثورته على الرافضة ومذهبهم ألغى تبعيته للعبيديين في مصر وأيد المذهب الملكي تأييدا فعالا عزز جانبه وأعلى شأن أنصاره من الفقهاء، هذا وازدادت مكانة المذهب المالكي رسوخا بالمغرب الأوسط والأقصى بقيام دولة المرابطين الملكية(441هـ-542هـ) الذين اتخذوه المذهب الرسمي لدولتهم وبهذا ظلت الحركة الفقهية ببلاد المغرب والأندلس لا تعرف التدريس ولا التأليف إلاّ في ظل المذهب المالكي وفروعه[4].

لقد شهدت الدولة الحمادية نهضة فكرية كبيرة في العلوم الدينية خاصة الفقه وتعددت تآليف العلماء سواء في القلعة أو بجاية في هذا النوع من العلوم، وكثرت تعاليقهم على المؤلفات السابقة كموطأ الإمام مالك والمدونة، ورسالة أبي زيد القيرواني وقد حفلت المدارس والمساجد والحلقات العلمية التي أولت عناية فائقة للفقه، كما اتجهت الحياة الدينية إلى دراسة الأحاديث المجموعة في كتب الفروع وفقا لمدرسة الحديث التي كان قد أسسها الإمام مالك، واهتموا بالكتب المالكية مثل "موطأ" الإمام مالك، "التلقين" لعبد الوهاب البغدادي، و"الواضحة" لابن حبيب و"العتبة" للعتبي[5].

1- محمد محمود عبد الله بن نبيه، **الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين**، ط2، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 2000م، ص- ص 9-104.

2- أبو عبد الله محمد الصنهاجي، **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تح: جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص- ص17-68.

3- رابح بونار، **المغرب العربي تاريخه وثقافته**، ط1، ش و ن ت، الجزائر، ص258.

4- بن نبيه، المرجع السابق ، ص- ص97-129.

5- عيسى ابن الذيب وآخرون، **الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث، الجزائر، 2007م، ص126.

ومن أشهر الفقهاء:

أبو علي حسن بن محمد المسيلي(580هـ/1185م): الذي نعت بأبي حامد الصغير تشبيها له بأبي حامد الغزالي[1]، عاش في طفولته بالمسيلة والقلعة، ثم رحل إلى بجاية، درس وتضلع حتى أصبح عالما مشهورا، فأسندت إليه خطة القضاء وشهد غزو بني غانية للمدينة، وأرغم هو وغيره من مبايعته، وتكونت بينه وبين القاضي الاشبيلي والفقيه محمد بن عمر القرشي صحبة متينة، من أشهر مؤلفاته: "التفكير" وهو دراسة في القرآن الكريم و"التذكرة في علم أصول الدين"، "النبراس في الرد على منكري القياس"، وقال الغبريني مقّيما شخصيته: "جمع بين العلم والعمل وبين علمي الظاهر والباطن"[2].

توفي أبو حامد الصغير سنة 580هـ/1184-1185م، ولم يكن تلقيه هذا اعتباطا وإنما وصل إلى درجة عظيمة في العلم والتفقه والحكمة، وحق لمدينة المسيلة والقلعة أن تفتخر بهذه العمدة في العلوم الدينية والفكر[3].

يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل المعروف بابن النحوي: (433-513هـ/1041-1119م) أصله من مدينة توزر، كان فقيها، مجتهدا، درس على يد أبو حامد الغزالي، طاف بلاد المغرب الإسلامي ومكث في فاس ثم سجلماسة وعاد إلى قلعة بني حماد وعاش فيها بقية عمره زاهدا ينشر العلم والمعرفة، مات بالقلعة سنة 513هـ[4].

وأبرز الفقهاء في بجاية على الإطلاق والذي تنوه المصادر التاريخية نبوغه في الفقه هو:**عبد الله بن الحجاج المعروف بابن السكات** الذي اشتهر بنبوغه في الفقه المالكي والدليل على ذلك أنه ولي قضاء مدينة مالقة بالأندلس.

1- بن قربة، المرجع السابق، ص171.

2- الغبريني، المصدر السابق، ص- ص72- 76.

3- بن قربة، المرجع السابق، ص172.

4- جورج ماسيه، **بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، تر: عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1991م، ص220.

كما اشتهر الفقيه **أحمد بن عثمان عبد الجبار المتوسي المليانـي**، الذي درس مؤلفات القاضي عبد الوهاب البغدادي المتوفي سنة 422هـ/1032م خاصة كتاب التلقين الذي حظي كذلك بشرح من الفقيه إبراهيم بن يخلف أبو إسحاق التنسي، وتذكر المصادر أن هذا الشرح جاء في عشرة مجلدات[1].

كما نبغ في بجاية العالم الفقيه **أبو يوسف عبد السلام يعقوب الزواوي البجائي** والذي كان يدرس الفقه على مذهب الإمام مالك في المدينة، كما كان يزور مختلف حواضر المغرب الإسلامي، ويلقي الدروس بها.

واستمر النشاط العلمي على هذه الوتيرة حيث قدم إلى بجاية العديد من العلماء المتضلعين في الفقه وفروعه من أمثال **أبي عبد الله محمد** صاحب مؤلف "القواعد الفقهية"،**أبو بركات محمد بن أبي بكر** من الأندلسيين إلى بجاية، واستقر بها وقتا من الزمن وكان هذا العالم مشهورا في الحواضر الأندلسية، حيث كانت له حلقات علمية في كل من ألميرية ومالقة، وفي بجاية اشتهر واجتمع حول الطلبة للاستفادة من علمه الغزير ومن دروسه الفقهية ومواعظه ودراسة كتابه الشهير الموسوم بـ"المدخل إلى الفقه المالكي".

كما زار بجاية العالم الفقيه **أبو سعيد العقباني الأندلسي** الذي تولى القضاء فيها ودّرس في مساجدها خاصة وأنه كان متضلعا في مختلف فنون العلم النقلية والعقلية وتذكر المصادر أن له تصنيفا "مختصر عن ابن الحاجب"[2].

كما اشتهر في الدولة الحمادية العالم الجليل **أبو عبد المالك البوني**، الذي قال عنه الجيلالي: "العلامة الفقيه المحدث أبو عبد الملك مروان ابن مروان الأسدي القطاني البوني، وهو

1- المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان، ج5، دار صادر، بيروت، 1408هـ/1988م، ص، ص248، 249.

2- ابن مريم، المصدر السابق، ص، ص42، 43.

خال أبي عمر القطاني الفقيه"[1]، استقر زمنا طويلا ببونة بعدها صال وجال مشرقا ومغربا، وفي بونة نظم حلقات العلم والتف حوله الطلبة من سائر الأمصار من المغرب والأندلس، وتذكر له المصادر كتابا من تأليفه في شرح موطأ الإمام مالك.

ومن العلماء كذلك نذكر **موسى بن حماد الصنهاجي** المتوفي سنة(535هـ/1140م) بمراكش عرف عنه أنه كان فقيها تولى القضاء، وكان رواية لأبي الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي، وغيره من العلماء.

كما عُرفت أشير بنبوغ عالم كبير، وهو **موسى بن الحاج بن أبي بكر الأشيري**، أقام بمدينة تدلس قرب بلجة، وظل يدرس الطلبة بها إلى غاية وفاته (989هـ/1193م).

بالإضافة إلى العالم **عمر بن عبد الله بن زاهر** الذي استقر في مدينة بونة وعرف برواياته عن شيوخ عصره مثل أبي عمران الفاسي الفقيه، وأبي عبد الملك مروان البوني، وأبي القاسم بن يربوع السبتي وقد توفي (440هـ/1048م).

أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري أبو العباس: نشأ بقلعة بني حماد، ودرس فيها عن أبيه في نهاية القرن السادس الهجري، وعلى يد الأستاذين أبو الحسن علي بن محمد بن عثمان التميمي، وأبو الحسن علي بن الشكر بن عمر القلعي، اهتم بالفقه وعلم القراءات وعلوم اللغة ثم انتقل إلى بجاية، واستقر بها فأخذ العلم فيها عن أبي زكريا الزواوي، حيث ولي الخطابة بجامع القصبة، له مختصر كتاب التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو وعثمان ابن سعيد الداني[2].

1- عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص355.

2- ابن الذيب، المرجع السابق، ص- ص90-96.

ب - التفسير:

هو علم يشتمل على معرفة فهم كتاب الله المنزل على نبينا محمد المرسل صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه[1]، ولا يمكن الخوض فيه إلاّ لمن تمكن من مبادئ اللغة وأصول الكلام، وفائدة هذا العلم حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة[2].

وقد اهتم علماء بجاية بهذا العلم لقيمته الكبيرة في فهم القرآن الكريم وبكتب التفسير المتداولة في ذلك العصر، وكان في أكثرية هذه الكتب التفسير الذي قام به المفسر **عماد أبو الفدا إسماعيل** والذي يتكون من خمسة أجزاء، وكتاب الوجيز في شرح كتاب الله العزيز ابن عطية (481-542هـ/1074-1147م).

وقد نّوه ابن خلدون بكتاب الزمخشري بأنه من أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن، ويبدوا من خلال كلام ابن خلدون أن تفسير ابن عطية كان أكثر التفاسير شيوعا وذيوعا بين الناس حيث يقول: "وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها، وتحرّ ما هو أقرب للصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحنى"[3].

وكان علماء بجاية مقصد الطلبة من الأندلس والبلاد المغربية الأخرى، ومن بين هؤلاء العلماء **محمد بن عيسى بن محمد الغزاري**، أحد طلبة بجاية النجباء الذين اهتموا بالمسائل **وسعيد بن عثمان وأحمد بن واضح** اللذين وليا قضاء بجاية وتوليا الفتوى بها لسعة علمهما.

1- الإكفاني، المصدر السابق، ص157. وأيضا: ابن خلدون، المقدمة، ص457.

2- لطف الله بن الحسن التوقاني، **رسالة في العلوم الشرعية والعربية**، ط1، تقديم وطبع وتعليق رفيق العجم، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994م، ص- ص50- 59.

3- ابن خلدون، المقدمة، ص 556.

ج- علم القراءات:

هو علم ينقل لغة القرآن وإعرابه الثابت بالسماع المتصل، كما يضبط به متن كلام الله تعالى بوجوهه المختلفة والنازلة عليها المتواترة عن النبي-صلى الله عليه وسلم- وهو علم القراءات السبع[1] وبه يبحث عن صور نظم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة ومبادئه ومقدمات تواترية، والغرض منه تحصيل ملكة ضبط هذه الاختلافات وفائدته صون كلام الله عز وجل عن تطرق التحريف والتغيير[2]، وبهذا العلم تعرف القراءة أداة ورواية وصحة وشذوذا، ويرتبط بهذا العلم أيضا علمي ضبط ورسم المصحف، والضبط هو علم يضبط الاختلافات المتواترة الواصلة إلى حد الشهرة، وهو علم القراءة الشاذة[3].

أما عن رسم المصحف فهو يبحث عن كيفية رسم كتابة القرآن في المصاحف ومبادئه مقدمات منقولة عن كتب الوحي وفائدته تحسين كتابة المصاحف وإبقاء الرسم المعهود في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم[4]، وهناك قراءات تعرف بالعشر، وكذا الأربع عشر، أما في القلعة وسائر بلاد المغرب الإسلامي فقط انتشرت قراءة أبو عمر الداني[5]، ومما شجع على انتشار هذا العلم بالقلعة والمغرب أن أمراء البربر كانوا يُحيون ليلهم ويقضون نهارهم في قراءة القرآن في محارب قصورهم، وأشهر من برع في علم القراءات في القلعة **أبي العباس أحمد بن عبد الله المعافري**، الذي وصفه صاحب عنوان الدراية: "الشيخ الفقيه المقرئ المتقن الأستاذ النحوي المحسل

1- هي قراءة تتضمن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم على محمد (ص)، ولقد اتفق العلماء على أن القصد من تعدد الأحرف هو التخفيف على الأمة. محمد المختار ولد أباه، **تاريخ القراءات في المشرق والمغرب**، منشورات المنظمة الإسلامية والتربية والعلوم والثقافة، إ يسيسكو، 1422هـ/2001م، ص41.

2- الإكفاني، المصدر السابق، ص154. وأيضا: طاش كبرى زادة، **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**، ج2، تح: كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1968م، ص338-383.

3- التوقاني، المصدر السابق، ص46.

4- نفسه، ص49.

5- ابن خلدون، المقدمة، ص448.

المقدم في القراءات"[1]، اختصر كتابا كما قلنا سابقا لعمر الداني اختصارا بليغا، قيل عنه أنه لا يتساهل في الإجازة بأي وجه، ولا يمكن منها الطلبة إلا بعد تحصيل، وكل من ظهر من الطلبة بإجازاته فقد ظفر بالغاية القصوى، ووصل إلى المرتبة الأولى[2].

والمقرئ **أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن محمد** المعروف **بابن عفراء**، كان حسن التلاوة، صادق القراءة، إذا أحيى ليلته السابعة والعشرون من رمضان، يرغب الناس القيام خلفه لصدق قراءاته[3].

وغيرهم كثير مثل **أحمد بن الطاهر الأنصاري**[4]، **وأبي مروان الحمداني**[5].

د-علم الحديث الشريف:

يعد علم الحديث ومصطلحه من أشرف العلوم الدينية وأهمها بعد علوم القرآن وهو علم يراد به معرفة معاني قول الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعبر عنه بالسّنة، وفائدته[6] حفظ ما نقل عن النبي(ص) من قول أو فعل أو تقرير، ويحتل المرتبة الثانية في التشريع الإسلامي، وبه تتضح أحكام القرآن وتفسيره. وينقسم هذا العلم إلى قسمين: علم حديث الرواية وعلم حديث الدراية.

ومن أعلام هذا العلم **أبو عبد الله محمد بن صمغان القلعي**، كان مجيدا في علم الحديث فقال عنه الغبريني: "كان له علم بالحديث والفقه والوثيقة وأكثر تخاطيطه تحدث"، **وأبو عبد الله محمد بن أحمد القلعي**[7].

1- الغبريني، المصدر السابق، ص104.
2- الحفناوي، المصدر السابق، ص80.
3- الغبريني، المصدر السابق، ص140.
4- رابح بونار، المرجع السابق، ص273.
5- ابن خلدون، المقدمة، ص780.
6- نفسه، ص459. وأيضا: التوقاني، المصدر السابق، ص46.
7- ابن الأبار، المصدر السابق، ج1، ص55.

هـ -التصوف:

عرفت الدولة الحمادية خاصة القلعة نوعا من التصوف، ومن متصوفوا القلعة **أبو القاسم** الذي قال عنه القاضي عياض: "صاحب فيه ورع وزهد ومروءة وخير"[1]، وحتى أنه لما بعث في سفارة إلى القيروان عام 438هـ/1046م وطوال إقامته في القيروان لم يفق إلاّ من ماله الخاص، وهذا دليل على شبع وزهد نفسه.

وأشهر الزهاد المتصوفين القلعيين **ابن النحوي**، الذي حاول التمكين لهذا العلم من خلال نشره نظرية الغزالي في التصوف بالقلعة[2]، وبدأ في تطبيقها على نفسه، وكان يلازم الصيام والقيام، والتهجد حتى أنه لا يشعر بما حوله وهذا ما يؤكده ابن مريم في قوله: "كان يصلي أكثر في داره اللغط وارتفعت الأصوات فقال ضيف لابنه: أما تشغلون خاطر الشيخ، فقال: إذا دخل في الصلاة لم يشعر من ذلك ثم أدنى السراج من عينه فلم يشعر لحضوره مع غيبته من الخلق[3]، وكان لشدة زهده لا يقبل من أحد شيء ولا يأكل إلا ما يأتيه من بلده الأصلي، لبس خشن الصوف وقصر جانبيه حتى وصلت إلى ركبته[4]، وزهده هذا كان يجلب له نقد الآخرين حيث انتقده قاضي الجماعة بالقلعة أبو عبد الله بن عصمة وقال له: "صفرت وجهك ورققت ساقيك"[5]، إضافة إلى أنه كان مجاب الدعوة حتى قيل: "نعوذ بالله من دعوى ابن النحوي"[6].

1- أبو الفضل موسى اليحصبي السبتي القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، ج4، تح: أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، د ت، ص779.

2- الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص117.

3- ابن مريم، المصدر السابق، ص301.

4- أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج في تطريز الديباج**، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ص351.

5- الطاهر بونابي، المرجع السابق ، ص211.

6- التنبكتي، المصدر السابق، ص351.

2-العلوم اللسانية:

تتمثل في علوم النحو واللغة والبيان، والأدب، حيث اتخذ بنو حماد العربية لسان الدولة الرسمي ذالك لأنهم استفادوا من أنظمة الحكم العربي الإسلامي الذي ساد شمال إفريقية في ذلك الوقت.

ولم تكن الدراسات العربية جديدة عن المغرب الأوسط، فقد وجدت هذه العلوم منذ بدأ المسلمون في المغرب الإسلامي يقرؤون القرآن عن التابعين، ويهتمون باعجامه على نحو ما فعله علماء مصر والقيروان حتى دُون علم النحو وظهر كتاب سيبويه ونحاة الكوفة والبصرة، وأقبل المصريون على الأخذ عنهم، وأطرد نمو هذا اللون من الدراسة حتى غمرت مصر وغاصت على غيرها من بلدان المغرب والأندلس[1].

واستمر تيار هذه الدراسات ببلاد المغرب، وكثر العلماء الذين انقطعوا إلى هذا العلم وعرفوا به، فتصدرت علوم اللغة والأدب مجالات النشاط العقلي في دولة الحماديين[2]، وكانت هذه الدراسات مناط عناية واحترام كل الطبقات، وقد اشتغل بها: "الملوك والوزراء ورجال الدولة والعلماء والطبقات العليا والسفلى"[3].

وكانت اللغة العربية مصدرا لثقافة جديدة تتميز من حيث العقائد والفكر بقياسها على القرآن والحديث، وعلى ما ارتبط بهذين الأصلين من علوم لسانية تساعد على تعلم لغة القرآن والحديث، وهكذا أصبحت العربية لغة الثقافة والفكر، ونحن لا نستبعد تأثرها باللهجات المحلية التي تكون قد أكسبتها لونا محليا ذا طابع خاص، أما البربرية فقد بقيت متداولة ولعبت دورا في الحياة الاجتماعية وهكذا أصبح للعربية موقع خاص بين اللغات القبلية في بلاد المغرب عامة[4]، ومع

1- حسن كامل محمد، **في أدب مصر الفاطمية**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1970م، ص115.

2- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص262.

3- عثمان الكعاك، **بلاغة العرب في الجزائر**، نشر مكتبة العرب، تونس، د ت، ص31.

4- بن قربة، المرجع السابق، ص204.

ذلك فقد كانت اللغة العربية الحية المطواعة للتعبير عن الفكر العلمي وفرضت نفسها بحيث أصبحت لغة السياسة والتخاطب الأدبي[1].

وإذا أردنا أن ندرك كيف أقبل الناس على هذه الدراسات والعلوم وكيف تضاعفت عدد الكتب التي ألفت فيها وجب علينا أن نلقي نظرة على كتب التراجم.

إن أعلام اللغة والفكر بالرقعة الحمادية كثيرون، أدوا دورا لا يستهان به في إثراء الحضارة العربية الإسلامية بمفهومها الواسع وقدموا مجهودات متنوعة في اللغة والأدب وغيرها استيعابا وتدريسا وتأليفا[2].

أ- النحو واللغة:

يدخل النحو واللغة فيما عرف عند العرب بعلوم العربية التي تحتوي على هذين العلمين إلى جانب الأدب، وارتباط النحو باللغة فهو أصل درج على الأخذ به من قبل علماء اللغة زمنا طويلا في تاريخ الإسلام، وهو ما نجده في كتاب سيبويه، والخصائص لابن جني وحتى كتاب المفصل للزمخشري، بل إن الأدب اختلط هو الآخر باللغة وبعض النحو في الكثير من الأعمال الأدبية كمقامات الحريري، وأمالي القالي والكامل للمبرد.

والنحو هو علم يتعرف منه على أحوال اللفظ المركب من جهة ما يلحقه من التعابير المسماة بالإعراب والبناء، وأنواعها من الحركات والحروف، ومواضعها ولزومها وكيفية دخولها في الجمل لتبين دلالتها[3]، والغاية من هذا العلم الاحتراز من الخطأ في ألفاظ العرب من جهة أصل التركيب الدال على أصل المعني.

1- فليب حتى، **تاريخ العرب** (مطول)، ج2، دار الكشاف، بيروت، 1951م، ص392.

2- يحي بوعزيز، **أعلام الفكر والثقافة في رقعة الدولة الحمادية**، الملتقى الدولي الأول حول آثار قلعة بني حماد-المسيلة، 23-25 سبتمبر، 1987، ص5.

3- الإكفاني، المصدر السابق، ص122. وأيضا: طاش كبرى زادة، المصدر السابق، ص138.

أما علم اللغة فهو علم نقل الألفاظ الدالة على المعاني المفردة وضبطها، وتمييز الخاص بذلك اللسان من الدخيل فيه[1]، وتوصيل ما يدل على الذوات مما يدل على الأحداث وما يدل على الأدوات، وبيان ما يدل على أجناس الأشياء وأنواعها وأصنافها مما يدل على الأشخاص، وبيان الألفاظ المتباينة والمترادفة والمشتركة والمتشابهة، وهو يبحث عن مدلولات جواهر المفردات، هيئاتها الجزئية، التي وضعت تلك الجواهر معها لتلك المدلولات بالوضع الشخصي، وعن الخارج عن كل جوهر، وهيئاتها الجزئية على وجه جزئي، وعن معانيها، الموضوع لها بالوضع الشخصي، وهذا العلم يحتاج إلى علمي النحو والصرف[2].

وممن لهم أثر يذكر من علماء النحو واللغة:

الحسن بن علي التيهرتي: الذي تخرج على أئمة علماء الأندلس وكبار أساتذتها في القرن الرابع الهجري، وكان ممن أخذ عنهم الحجاج بن المأمون وابن سعدون، ومروان بن عبد الملك، والقاضي بن سهل وأبو محمد بن قحافة وغيرهم، وعنه أخذ العلامة المغربي أبو الفضل القاضي عياض وذكره في فهرسته وأثنى عليه يقول: "شيخ بلدنا في النحو مشهور الصلاح، درس عمرة النحو وأخذ على جماعة أصحابنا وجماعة شيوخنا، توفي رحمه الله تاسع ذي الحجة سنة إحدى وخمسمائة"[3]، ومن اللغويين كذلك **أبو الطاهر عمارة بن يحي بن عمارة الشريف الحسني** من بجاية، قال عنه صاحب عنوان الدراية بأنه: "كان متقدما في علم العربية والأدب، وله تآليف في علم الفرائض منظوم، وتواشيحه في نهاية الحسن وبها يضرب المثل"[4]، إضافة إلى **أبو العباس المعافري**.

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن جميع اللغويين والنحاة الذين نبغوا في المغرب الأوسط خلال العصر الحمادي لأن القائمة طويلة.

1- الإكفاني، المصدر السابق، ص141.

2- نفسه، ص111. وأيضا: طاش كبري زادة، المصدر السابق، ص127.

3- بن قربة، المرجع السابق، ص207.

4- الغبريني، المصدر السابق، ص- ص76-80.

ب - الأدب:

الأدب هو الإجادة في فني النظم والنشر، أو ما يعبر عن معنى الحياة بأسلوب لطيف جميل سواء كان شعرا أو نثرا[1].

وحسب ابن خلدون ينقسم الأدب إلى قسمين إذ قال: "إعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين، في الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه، الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية، وفي النثر وهو الكلام غير الموزون، وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام"[2].

هذا وعرف الأدب ازدهارا بالمغرب الأوسط في هذه الفترة حيث احتل مرتبة عالية بين مختلف العلوم اللسانية واللغوية الأخرى.

ومن أشهر العلماء الذين ظهروا في هذا العصر:

ابن رشيق القيرواني: هو الحسن بن رشيق أبو علي الشهير بالقيرواني لقب بهذا الاسم لطول مكوثه في القيروان، ولد في المسيلة سنة (385هـ/995م) اهتم بالأدب والتاريخ فدرسها عن علماء بلده ثم رحل إلى القيروان، حيث لازم كبار علمائها وأخذ عنهم العلم، مدح أميرها المعز فقربه إليه وجعله كاتبا فذاع صيته في القيروان إلى أن غزا الهلاليون إفريقية فلجأ إلى صقلية وأقام بها إلى أن توفي سنة (463هـ/1071م)[3]، وقد ترك مجموعة من الكتب منها: "العمدة في صناعة الشعر ونقده"، "الشذوذ في اللغة"، "نموذج الزمان في شعراء القيروان"، "ميزان العقل في ميزان الدول"، "الروضة الموشية في شعراء المهدية"، هذا فضلا عن مجموعة من الرسائل ألفها في مجموعات مختلفة مثل "رسالة نجع الطيب" و"رسالة قطع الأنفاس"، وقد اطلع الصفدي على هذه الكتب وتأكد من تبحر ابن رشيق في اللغة والأدب والشعر.

1- ابن خلدون، المقدمة، ص620. وأيضا: طاش كبرى زادة، المصدر السابق، ص204.

2- ابن خلدون، المقدمة، ص622.

3- بن قربة، المرجع السابق، ص206.

ومن بين هؤلاء العلماء الذين كان لهم باع وصيت طويل في هذه العلوم نذكر الشيخ **أبي القاسم يوسف البسكري:** الذي ولد بمدينة بسكرة النخيل عام (403هـ/1012-1013م)، درس بمسقط رأسه العلوم والمعارف، ثم شد عصا الترحال غربا وشرقا طلبا للتحصيل والاستزادة في العلم والمعرفة والتفقة، زار بغداد ونيسابور وأصفهان، واهتم بدراسة علوم اللغة والآداب وخصوصا علم القراءات، كان إمام عصره في تلك العلوم حتى قيل فيه: "أنه لا يعلم أن أحدا من هذه الأمة رحل في طلب القراءات برحلته".

تفرغ هذا العلامة لتدريس هذه العلوم، واشتهر بآرائه وتفاسيره المقنعة، وأصبح مرجعا في كثير من المسائل والإشكاليات في النحو واللغة والقراءات وبسبب شهرته وطول باعه في تلك العلوم، استدعاء الوزير السلجوقي نظام الملك إلى نيسابور عام(458هـ/1066م) وعينه أستاذا في المدرسة النظامية، وبقي يدّرس بها حتى توفي سنة(465هـ/1072م) ألّف من الكتب "الكامل في القراءات"، وفضلا عن وفرة الدراسات اللغوية والأدبية العربية، شهدت الدولة الحمادية وغيرها من الأمصار المعروفة، ظهور بعض علماء اليهود الذين اهتموا بدراسة الثقافة رغم قدمها، وبُعد الشقة عن الموطن الأصلي لها نتج عنه عدة علماء[1].

ج-الشعر:

اتسم الشعر في العصر الحمادي وخاصة القلعة بالوزن، والقافية، واستخدام البحور الشعرية التقليدية، واتسم بالاحتشام والوقار والحياء، وتعددت أغراضه من مدح ورثاء وتوسلات، فهناك الكثير من الشعراء الذين كان لهم أثرهم في ازدهار الحياة الأدبية والفكرية خلال هذه الفترة، وسنقتصر في هذه الدراسة على مشاهير الشعراء الذين وصلتنا أخبارهم ونماذج من أشعارهم مبتدئين بالشاعر:

1- بن قربة، المرجع السابق، ص208.

ابن النحوي:[1] كان من كبار العلماء الذين كرّسوا حياتهم لنشر العلم والمعرفة والتأليف، تضلع في أصول الدين والفقه واللغة وغيرها، قيل عنه[2]: "أخذ صحيح البخاري عن اللخمي وأخذ عن المازري، وأبي زكريا الشقرطاسي، وعبد الجليل الريعي، وكان عارفا بأصول الدين والفقه يميل إلى النظر والاجتهاد، له تآليف، حدث وأخذ عنه، وروي عنه القاضي أبو عمران موسى بن حمام الصنهاجي"، وقد نظم هذا الشاعر عدة قصائد في المدح والوصف (وصف فاس) وقد ترك لنا تراثا أدبيا وعلميا جديرا بتخليده ضمن أدباء العصر الحمادي[3]، نذكر من بين أشعاره مدحه لأبا حامد الغزالي إذ يقول:

أبو حامد أحيا من الدين علمه وجدّد فيه ما تقدم من عهده.

كما مدح أيضا مصر في قصيدة بديعة في وصفها، وها هي بعض أبياتها:

أين مصر وأين سكان مصر بيننا شقة النوى والعـــــباد.

حدثاني عن نيل مصر فانني منذ فارقته إلى الماء صـــاد.

والرياض على جانبيـــــــه واجعلاه من الأحاديث زادي.

رق قلبي حتى لقد خلت أني بين أيدي الزوار والعـــــواد.

إضافة لوصفه لمدينة فاس:

يا فاس منك جميع الحسن مستوق وساكنوك أهنيهم بما ورقوا[4].

1- أحمد حماني، **عباقرة من رجالنا**، الأصالة، عدد خاص ببجاية، 1982م، ص213. وأيضا: التادلي أبو يعقوب يوسف بن يحيى ابن الزيات، **التشوق إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تح: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1984م، ص95 وما بعدها.

2- أحمد بن محمد أبو رزاق، **الأدب في عصر دولة بني حماد**، ش و ن ت، الجزائر، 1979م، ص239.

3- بن قرية، المرجع السابق، ص178.

4- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص، ص178، 179.

ابن حمديس الصقلي: ولد أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي في سرقوسة بجزيرة صقلية سنة 447هـ/1055م، في أواخر حكم العرب لهذه الجزيرة[1]، وقد تميزت صقلية بوديانها الخصبة وأنهارها الجارية وطبيعتها الغنية.

وبعد أن حلت النكبة بصقلية رحل إلى الأندلس سنة 471هـ/1088م ولاذ بكنف المعتمد بن عباد، وصار شاعره، ولما استولى يوسف بن تاشفين على مدينة أشبيلية ونفى أميرها ابن عباد إلى قلعة أغمات بالمغرب الأقصى لحق ابن حمديس سيده في منفاه وبقي وفيا له، ينظم الشعر الحزين، ولما توفي ابن عباد، سافر إلى إفريقية واستقر بمدينة بجاية الحمادية، حيث أصبح شاعر الناصر بن علناس ودّون خلاصة ما رآه وأُعجب به، حيث ترك ثروة هائلة من الأشعار يصف فيها مظاهر العمارة والعمران في بجاية الناصرية ثم انتقل إلى جزيرة تقع بشرقي الأندلس، فمات بها أعمى بائسا سنة 527[2].

وكونه نشأ في جزيرة صقلية التي كانت ذو طابع خلاب، وَلّد في نفسه ظهور فن الوصف في أشعاره واهتمامه به، ومصاحبته للعرب في المغرب كانت لها أيضا أثرها الواضح في ازدياد تعلقه بالعرب والمسلمين وبيئتهم، وما يتصل بها من ألوان التفكير والأساليب، لذا أكثر من مدحهم والفخر بهم، ووصف حياتهم[3]، واشتهر ابن حمديس بوصف الطبيعة والتغني بها، فقد وصفها وبالغ في الوقوف على الأطلال، وهناك عدة أشعار يمدح فيها ابن حمديس المنصور الحمادي وخصاله وشخصيته نذكر من بينها بعض الأبيات لقصيدة طويلة استهلها بوصف الخمر قبل أن يظهر إعجابه ومدحه للأمير إذ يقول:[4]

أمدام عن حباب تبتســـــم أم عقيق فوقه درّ نظـــــــــــم.

1- كانت جزيرة صقلية تابعة للمسلمين منذ 212هـ، واستمرت في ظل الحضارة العربية الإسلامية إلى 464هـ. بن قربة، المرجع السابق، ص184.

2- جودت الركابي، **في الأدب الأندلسي**، دار المعارف، القاهرة، 1966م ،، ص100.

3- بن قربة، المرجع السابق، ص185.

4- إسماعيل العربي، **ابن حمديس الصقلي**، شاعر بني حماد، الأصالة، عدد خاص ببجاية عبر العصور،1982م، ص327.

أعلى الهم بعثنا كأسنـــــا أم بنجم الأفق شيطـان رجـــــم.

أضلام لضياء طبـــــــق أم على الكـــافور بالمسك ختـــم.

أندى في الزهر أم ماء الهدى حار أعين حور لم تنـــــــــم.

ومما قاله في مدح المنصور نذكر بعض هذه الأبيات:

حل قصر المجد منه ملك بدئ المجد به ثم ختـم.

يختبئ في الدست منه أسد وهلال وسحـــاب وعلم.

يترك النقمة في جانبـــــه وإذا عاقب في الله انتقم.

وإذا قـــال نعم، وهي لـــه عـاد أسبغ بـالبدل النعم.

وما زالت القصيدة طويلة، وقد أبرز فيها شخصية الحاكم الحمادي منوها بخصاله التي تميز بها حكم الدولة.

ومن الشعراء الذين عرفوا في العهد الحمادي وكان لهم باع في نظم الشعر نذكر الشاعر **إبراهيم بن الهازي** الذي اشتهر بالموشحات، عرّف ابن بشرون طريقته في الشعر فقال: "دانه صاحب توشيخ مليح، وربما قصّر إذا قصد وأحسن إذا قطع"[1].

إضافة إلى الشاعر **أبو الطاهر عمارة بن يحي بن عمارة**، الذي عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، كان فقيها معروفا، قال الغبريني عنه بأنه يكنى أبا طاهر "له علم وأدب وفضل ونبل، قضى في بعض النواحي ببجاية، كان متقدما في علم العربية والأدب، له تآليف في علم الفرائض منظوم وتواشيحه في نهاية الحسن، وربما يضرب المثل، وكثيرا ما يقول الناس عندما يشطط الإنسان في الطب فيجاوبه، وأغني لك موشحا لعمارة، وقد ذكر لي أن شعره

1- عماد الدين محمد الأصفهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر(قسم شعراء المغرب)**، ج1، تح: محمد المرزوقي، العروسي، الدار التونسية للنشر، 1966م، ص184.

قد جمع في ديوان، ولكن ما اطلعت عليه، رأيت بعض قطع مستحسنة من شعره"، وقد كان حيا بعد 585هـ/1189م[1]، وهذه أمثلة عن بعض أبياته:

سلام كعرف المندل الرطب في الجمر وإلاّ كمـــــا هبّ النسيـــــم على الزهر.

فلله در مقلتين بعبـــــــــــــرة تعّبر فوق الخّد عن كـــــــــلمن السيّ ر.

وقد راعني أيماض برق بذي الغضـا كمـــا ابتسم الزّنجي عن بهج التّـــــــغر.

بدالـــي أن الليل أوى زنـــــــــاده ولا نـــــــار إلاّ نـــــور برق لـه يسرى.

ونـــــــار بأكباد أكـــابد حرّهـــــا وقلـــب سليـــــــم في لظـــى جمـــر.

وما طـــــ ائر فوق الغصون مسجّ كمن بات مقصوص الجناحين في وكر[2].

كذلك الشاعر **القلعي الأصم** وهو محمد بن عبد الله بن زكريا أبو عبد الله القلعي الشهير بالأصم، شاعر من أهل قلعة بني حماد، ورد ذكره في بعض المصادر التاريخية وأثنت على شعره، سافر إلى بلاد المشرق وانتهى به المطاف في مدينتي الإسكندرية والقاهرة، مكث بهما مدة زمنية، غير أنه لم ينل المكانة التي ينشدها لدرجة بلغت به عجزه عن تحصيل قوت يومه، فقفل راجعا وفي طريقه ّمر بقوم يدعون بني الأشقر من بلاد طرابلس الغرب فامتدحهم بقصيدة جميلة فأحسنوا إليه وأجزلوا له العطاء[3] وقد سكتت المصادر عن ذكره باستثناء القليل من أمثال ابن الزبير الذي قال في شعره: "كان جيد الشعر، وأزى وناد الفكر، لكنه منحوس الحظ منحوس الجد"[4].

1- الغبريني، المصدر السابق، ص76.

2- بن قربة، المرجع السابق، ص201.

3- ابن الذيب، المرجع السابق، ص97.

4- بن قربة، المرجع السابق، ص201.

وهذه مطلع القصيدة الميمية التي امتدح فيها بني الأشقر:

ترى فاض شؤبوب من الغيم ساجـــم وأومض مشبوب من ابرق جـاحم.

وما الندى والوقت بالصيق حـائـــــم وما ألسنا والجو بالليل فاحـــــم.

وما هذه مزن وما ذي بـــــــــــوراق ولكنها أيمانكم والصـــــــــــوارم.

بنتي الأشقر استعملوا بحق على الورى كما لم تزل فوق الكعوب اللهاذم.

مشيتم إلى العليا، وطار سواكـــــــــم فلم تبلغ الأقدام فيها القــوادم[1].

وتبقى اللائحة طويلة، فإلى جانب النخبة التي أتينا عليها من أسماء الأدباء والشعراء والكتّاب الذين أغنوا الحياة الفكرية والأدبية، هناك عدد كبير من الأدباء والعلماء قدموا من بلدان إسلامية مختلفة حطوا الترحال بالمغرب الأوسط ليضيفوا بما حصلوه من العلوم والفنون لبّنة جديدة ساهمت في دفع حركة النهضة الفكرية أيام أمراء بني حماد نذكر أبرز هؤلاء الوافدين:

-**أبو محمد عبد الله بن خليفة القرطبي** المعروف بالمصري، وقد وصل القلعة في أيام حكم الأمير بلكين بن محمد بن حماد، نظم قصيدته في مدحه ثم عاد إلى الأندلس[2].

-أبو القاسم عبد الخالق بن إبراهيم القرشي المعروف بن الفكاء القيروان ظهر في عهد الأمير الناصر بن علناس.

-أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي، كان شاعر أندلسيا عاش في عصر ملوك الطوائف، ثم التحق ببلاط المعتمد بن عباد باشبيلية فصار شاعره الخاص، عرف باسم "ابن اللبانة"، لأن أمه كانت امرأة فاضلة تشتغل ببيع اللبن في دكانها حتى غلب اسم اللبن عليها فنسب

1- عبد الحميد حاجيات ، المرجع السابق، ص25.

2- ابن سعيد علي بن موسى المغربي، **المغرب في حلى المغرب**، ج1، طبع دار المعارف، مصر، 1953م، ص130.

أولادها إليها، كان أبو بكر شاعرا أندلسيا عاش في عصر ملوك الطوائف ثم التحق ببلاط المعتمد بن عباد باشبيلية فصار شاعره الخاص[1]، رثا ابن عباد في قصيدة طويلة مطلعها:

لكل شيء من الأشياء ميقات وللمنى من المنايا هن غايات.

وقال في مدح باديس بن المنصور (موشح):

في نرجس الأحداق، وسوسن الأجياد ثبت الهوى فعروس بين القنا المياد.

وفي نقا الكافور والمندل الرطب[2].

المبحث الثالث: العلوم العقلية والاجتماعية

1-العلوم العقلية:

والعلوم العقلية كانت موجودة، هذا ما جعل الدولة الحمادية تحظى بمكانة مرموقة جعلت العلماء يتقاطرون عليها من مختلف الأنحاء، ومن ضمن العلوم العقلية العلوم العددية والتي تعرف بها خواص الأعداد من حيث التأليف، إما على التوالي أو بالتضعيف، ومن فروعها علم الحساب[3] وعلم الجبر والفرائض التي تعرف اليوم بالرياضيات[4].

أ- الرياضيات والفرائض:

لقد حظي المسلمون بالمغرب الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة بخطوات كبيرة من أجل تطوير علم الحساب والهندسة والجبر والميكانيك، إذ نقلوا أصول العلوم كالحساب من الإغريق والهنود ثم قاموا بتدريسها والاستفادة منها، وقد برز في الدولة الحمادية عدة

1- بن قربة، المرجع السابق، 202.

2- نفسه، ص203.

3- ابن خلدون، المقدمة، ص- ص897-899.

4- محمد قويسم، **علماء الرياضيات في مدينة قلعة بني حماد**، الملتقى الدولي، مدينة قلعة بني حماد 1000 سنة من التأسيس، قسم التاريخ، جامعة بوضياف، المسيلة، الجزائر، 9- 10- 11 أبريل،2007، ص21.

علماء، فمثلا القلعة كان العلماء بها في الرياضيات وخاصة في علم الحساب، الذي كان يدّرس في مساجدها ومعاهدها.

ومن أعلام الحساب **علي بن معصوم بن أبي ذر القلعي**، ولد بالقلعة نشأ وتعلم بها ثم رحل إلى بلاد المشرق، واستوطن العراق وتفقه على يد الفرنج الخزيني[1]، ثم انتقل إلى خراسان[2]، كان إماما فاضلا من كبار فقهاء الشافعية عالما بالمذهب، وبحرا في الحساب، توفي في سفراين[3]، شهر شعبان سنة(551هـ/1156م أو 555هـ/1160) ذكر له المستشرق الشهير روز نفلد (Rose nfeld) كتاب بعنوان "حاشية على درة التاج"، وهو عبارة عن مخطوط موجود في طهران، وذلك الجزء الخاص بالعلماء الذين تجهل فترات حياتهم من كتاب إلهام علم الرياضيات والفلك في القرون الوسطى وأعمالهم من القرن الثامن إلى القرن التاسع عشر الميلاديين[4].

ونتيجة لهذا التطور الحضاري والعلمي الذي اتسمت به الدولة الحمادية -وخاصة بجاية- حتى غدت حاضرة من الحواضر الإسلامية وأصبح الطلبة يفدون إليها من كل الأقطار الأوروبية مثل إيطاليا، فقد زارها ليوناردو ديفنشي (1180م) باستدعاء من والده ليقيم فيها، وأثناء إقامته في بجاية كان يختلط بتجار الفرو، والجلود فسلمه أبوه إلى معلم عربي هو سيدي البجائي وعلمه مختلف العلوم الخاصة كعلم الحساب[5].

ويعتبر علم الفرائض أحد الركائز التي تقوم عليها مصالح المسلمين حيث أوليت له عناية كبيرة في كل أنحاء العالم الإسلامي، ولاسيما مغربه حيث ازدهرت مختلف حواضره بما في ذلك

1- الفرنج الخزيني: ذكره الحنبلي هكذا، لكن الأصح بن عبد الله أبو الروح. الأستوي، **طبقات الشافعية**، ج1، تح: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987م، ص434.

2- خراسان: منطقة واسعة تشتمل على كور عظام وأعمال جسام، يحدها شرقا سجستان وبلد الهند. ابن حوقل، صورة الأرض، ص- ص226-258.

3- سفراين: هي مدينة كبيرة فيها أسواق ومياه جارية في أخر عمل نيسابور من خراسان، وبينهما خمس مراحل وقيل اثنان وثلاثون فرسخا(أي حوالي130كلم)، وهي مشهورة بكثرة العلماء المنسوبين إليها. الحميري، المصدر السابق، ص291.

4- محمد قويسم، المرجع السابق، ص3.

5- ابن الذيب، المرجع السابق، ص، ص136، 137.

قلعة بني حماد، ومن الذين نبغوا في هذا العلم: **محمد بن الحسين بن علي بن أبي علي القلعي** له مؤلف بعنوان "ايضاح الغوامض في علم الفرائض"، **ومحمد بن محمد بن أبي بكر المنصور القلعي**، الذي كان عالما بالفقه والفرائض والحساب وله مجلس يقرأ فيه التهذيب من العدول المرضيين، توفي ببجاية في عشر الستين وستمائة[1].

ب- الطب والصيدلة:

إن هاتين الصنعتين كانتا متلازمتين في العهد الإسلامي إذ لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى وبطبيعة الحال لا يخلو مجتمع من المجتمعات في القديم أو الحديث منها، وذلك لأهميتها في حياة الناس.

والطب علم يبحث فيه عن بدن الإنسان منجهة ما يُصِحُ ويُمرض لالتماس حفظ الصحة وإزالة المرض[2]، فالأدوية والأغذية، بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن، وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها[3]،

وبهذا فالطب ينقسم إلى نوعين: حفظ صحة موجودة، أو ّرد صحة مفقودة، فأما حفظ الصحة الموجودة فهو مراعاة حفظ الصحة في حال عافية البدن والنظر في عافيته لأن العاقل هو الذي يتدبر الأمر قبل الوقوع فيه[4].

أما ّرد الصحة المفقودة فهو معالجة الأبدان بالأدوية عند وقع الأمراض فلابد من معرفة أصل علم الطب، ومن هذا فالطب صناعة وعلم وقد عُرف الطب قديما إلى أن كان ينظر إلى الأمراض على أنها أرواح شريرة حلت في الأبدان ولا أمل في الشفاء إلاّ بالسحر، ولهذا ارتبطت

1- التنبكتي، المصدر السابق، ص381.

2- الإكفاني، المصدر السابق، ص171.

3- ابن خلدون، المقدمة، ص521. وأيضا: حسن عاصي، **تاريخ العلوم عند العرب**، ط1، دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع، 1991م، ص51.

4- جمال الدين محمد بن تومرت، **كنز العلوم والدّر المنظوم في حقائق علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة**، تقديم وتح: أيمن عبد الجابر البحيري، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1999م، ص88.

مهنة الطب بالسحر، وظل الأطباء في أوروبا يمارسون السحر في علاج مرضاهم، وكان الطب عند اليونان مصبوغا بالصبغة الفلسفية النظرية[1].

وبظهور الإسلام أعطى عناية كبرى لهذا العلم نظرا لما امتاز به من الحفاظ على الإنسان روحا وبدنا لأن الله تعالى أمر بالحفاظ على صحة الإنسان[2].

وهكذا ازدهر هذا العلم في كامل العالم بما فيه المغرب الإسلامي الذي عرف على الخصوص الكثير من العلماء الذين كان لهم مكانة في هذا العلم.

والأبحاث في علم الطب كانت تتم وفق القوانين والنظريات والاستدلالات الجليلة، مما جعلها مقصد طلبة علوم الطب والأطباء من مختلف الأمصار خاصة الأندلس، حيث ُمورست مهنة الطب وتم الترويج للمؤلفات الطّبية، ومن الأطباء الذين ذاع صيتهم في العصر الحمادي:

أبو جعفر بن علي البذوخ: المعروف **بابن البذوخ الطبيب**، الذي عاش في عصر العزيز بن المنصور وأخيه يحي، كان خبيرا بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة[3] إلى جانب حسن نظره، في الاطلاع على الأمراض وعلاجها، إذ أنه جمع بين الطب والصيدلة، رحل إلى المشرق واستقر بدمشق[4]، وأنشأ دكان عطر، حيث كان يعالج من يأتي إليه، ويصف له الدواء إلاّ أنه كان يقوم بتهيئة الأدوية المركبة التي كان يصنعها من سائر المعاجن والأقراص، يبيع منها وينتفع الناس بها، له كتب لا تزال مخطوطة منها: "حواشي على كتب قانون ابن سينا"، "شرح الفضول لأبي قراط"، وكتاب "ذخيرة الألباب أو الباء في الباء" و"الطائف الأنوار في الطب"[5].

1- أحمد علي الملا، **أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية**، ط2، دار الفكر، دمشق، 1981م، ص221.

2- ابن عماد الحنبلي، **صحيح الطب النّبوي**، ط1، راجعه وقدم له أحمد عبد الغني الجمل، دار ابن حزم، 2004م، ص16.

3- بن قربة، المرجع السابق، ص212.

4- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص270.

5- رابح بونار، المرجع السابق، ص192. وأيضا: عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص270.

أما الطبيب الثاني فهو **ابن المليح**: كان طبيبا ماهرا مشهورا[1]، وكاتبا شاعرا في بلاط بني حماد، رويت له مقطوعات للحب، وعلي الطبيب كان طبيب إفريقي مرتزق بالطب في الدولة الحمادية وأن له شعرا وأدبا[2].

ويوجد طبيب يظهر من اسمه أنه من أسرة البذوخ وهو **أبو حفص عمر بن علي ابن خليفة ابن البذوخ القلعي**، كان طبيبا بالإسكندرية، ومن خلال اسمه يمكن أن يكون من أبناء عمومة ابن البذوخ، وخاصة إذا اعتبرناه أبو جعفر وأبو عمر بن علي وأبو حفص عمر بن علي وجدهما هو الخليفة ابن البذوخ.

وعن تطور الأدوية والطب في قلعة بني حماد نجد نص يبّين فيه ذلك "بهذه المدينة عقارب كثيرة سود، تقتل في الحال وأصول القلة يتحرزون منها، ويتحصنون من ضررها، ويشربون لها نبات الفليون الحراني".

ولعل أبرز العلماء الذين اهتموا بهذا الحقل العلمي: أبي العباس **أحمد الغبريني**[3] فإلى جانب إسهاماته في الدراسات الفقهية ومجالس العلم شارك في علم الطب وصناعة الأدوية، يقول في عنوانه: "كلفني شيخي أبي القاسم محمد بن أحمد بن محمود الأموي بنظم بعض الأدوية على سبيل التعاون فنظمتها له"، وكان **لأبي عبد الله محمد بن يحي بن عبد السلام** مشاركة واسعة في هذا المجال، قال عنه الغبريني: "وكان له حظ في علم الطب علمية وعملية وكان مزاولا ومعالجا"[4].

1- الأصفهاني، المصدر السابق، ص184.

2- رشيد بورويبة ، المرجع السابق، ص، ص251، 252.

3- الغبريني، المصدر السابق، ص101.

4- نفسه، ص294.

ج- الفلك:

أما بخصوص الفلك فقد اشتهر: **علي بن أبي الوجال التاهرتي** المتوفي 432هـ والذي عرف بآثاره العلمية الكثيرة خاصة كتاب "البارع في أحكام اللنجوم"، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية واللاتينية، وكذلك كتاب "أرجوزة في الأحكام الفلكية"[1].

2-العلوم الاجتماعية:

تتمثل العلوم الاجتماعية في علم التاريخ وما يشتمل عليه من(السيرة النبوية والتراجم والمناقب والفهارس)، وكذا علم السياسة، ونخص بالذكر علم التاريخ.

أ- التاريخ:

التاريخ: لغة من أرخ، والتاريخ: التعريف بالوقت الذي به تضبط الأحوال[2]، والتاريخ: التدوين، وأّرخ: كّرر كتابة التاريخ، ومصطلح التاريخ يفيد العهد والحساب والوقت، والتاريخ هو غاية الشيء ووقته الذي ينتهي إليه، وهو مصدر(أّرخ) اللفظ الشائع بلغة قيس أو(ورّخ) بلغة تميم[3].

أما موضوعه فهو دراسة الإنسان والزمان ومسائله، وأحوالهما المفصلة للجزيئات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان[4].

وعلم التاريخ هو تتبع أحداث الماضي تسجيلا ودراسة وتحليلا سواء تعلقت بالفرد أو بالجماعة[5].

1- رابح بونار، المرجع السابق، ص200. وأيضا: عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص271.

2- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، دراسة وتح: عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، 1989م، ص20.

3- محمد محاسنة، **أضواء في تاريخ العلوم عند المسلمين**، دار الكتاب الجامعي، العين، 2001م، ص180.

4- السخاوي، المصدر السابق، ص21.

5- محمد محاسنة، المرجع السابق ، ص181.

ويعد علم التاريخ الإسلامي من العلوم النقلية نتيجة لاتصاله الأول بعلم الحديث[1]، لذا وجه المسلمون عناية فائقة إلى تاريخهم منذ وقت مبكر فبدؤوا في تدوين أخبارهم منذ منتصف القرن الثاني للهجرة[2].

هذا وبدأ علم التاريخ يستقل بأسلوبه ومنهجه عن علم الحديث حتى أصبح علما قائما بذاته فدّون الناس في الأخبار وأكثروا، وجمعوا تواريخ الأمم والدول في العالم فبرز فيه علماء أجلاء كابن إسحاق، الطبري، المسعودي، ابن الكلبي، الواقدي وغيرهم[3].

وبعد هذا ظهرت مؤلفات لها صلة وثيقة بعلم التاريخ ككتب السّير والمغازي وكتب الأنساب والأمم والأديان والتراجم والطبقات والحوليات والتواريخ المحلية والخِطط والمناقب، والفهارس، والوفيات، وغيرها من المؤلفات ذات الصلة بعلم التاريخ[4].

وسار المغرب الإسلامي في بداية الأمر على نفس نهج المشرق في مجال تدوين التاريخ إلى أن ظهرت مدرسته الخاصة مع ابن عذاري وعبد الرحمن بن خلدون، الذي نقد المؤرخين الأوائل[5].

والظاهر أن علوم التاريخ ومعها الجغرافيا لم تنل العناية التي تستحقها من قبل العلماء على الرغم من أهميتها كتلك العناية التي أولوها لعلوم الدين واللغة والطب والنحو، فكانت فترة حكم

1- يسري عبد الغني عبد الله، **معجم المؤرخين المسلمين في القرن الثاني عشر الهجري**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م، ص11.

2- نور الدين حاطوم وآخرون، **مدخل إلى التاريخ في التاريخ والمؤرخين منذ القديم حتى اليوم**، مطبعة الإنشاد، دمشق، 1965م، ص137.

3- ابن خلدون المقدمة، ص10. وأيضا: يسرى عبد الغني، المرجع السابق، ص- ص16-20.

4- عبد العزيز سالم، **التاريخ والمؤرخون العرب**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1967م، ص- ص66-71.

5- إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص- ص245-256.

الحّماديين، فترة انصبت بالدرجة الأولى على العربية والإسلام، باعتبارهما الأساس الذي تقوم عليه عملية تعريب المغرب[1].

وقد شهدت المدرسة التاريخية المغربية نشأة مؤرخي الأمصار المعنيين بتراثها وسرد أخبارها، والمتحدثين عن قبائلها، وأنساب أهلها وعلمائها ووصلتنا أسماء بعض الأعلام الذين اهتموا بالتاريخ من أمثال **أبي محمد القلعي** الذي كان مدرسا بالمسجد الجامع بمدينة بجاية[2]، **ومحمد بن ميمون** حفيد قاضي القلعة، **ويوسف الورجلاني**، صاحب كتاب "فتوح المغرب"[3]، ويرى ابن الأبار أن العزيز بالله بن المنصور بن الناصر بن علناس ابن حماد الصنهاجي، قد ألف له **حماد بن إبراهيم بن يوسف المخزومي** كتابا في التاريخ[4].

ومن المؤرخين الذين ارتبطوا بالدولة الحمادية العلامة **أبو عبد الله محمد بن علي بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي القلعي** المتوفي ما بين 628هـ و640هـ[5]، بمزج حمزة، درس بالقلعة حتى تضلع في التاريخ والآداب ثم رحل إلى مدينة بجاية، ودرس على يد أبي مدين شعيب بن الحسين وأبي علي المسيلي ثم تنقل بين عدة مدن طلبا للعلم والمعرفة وظل يختلف بين عواصم المغرب الإسلامي يدّرس ويروي الكتب والمؤلفات وتضلع في كتابة التاريخ واللغة والأدب والفقه والحديث، وكان قاضي مدينة سلا بالمغرب الأقصى والجزيرة الخضراء بالأندلس[6].

ومن أشهر مؤلفاته التاريخية كتاب "الديباجة في أخبار صنهاجة"، وقد عرض فيه لتاريخ قبيلة صنهاجة، واعتبر هذا الكتاب أحد مصادر العلامة عبد الحميد بن خلدون في كتابه "العبر" واستفاد منه عدد المستشرفين[7].

1- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص269.

2- عثمان الكعاك، بلاغة العرب . . .، ص28.

3- إبراهيم العدوي، المجتمع المغربي. . .، ص305.

4- ابن الأبار، المصدر السابق، ج1، ص127.

5- الغبريني، المصدر السابق، ص192.

6- بن قرية، المرجع السابق، ص210.

7- منهم ليفي بروفنسال في كتابه أخبار البربر الذي نشره سنة 1933، وأماري الصقلي في مؤلفه (المكتبة الصقلية).

بالإضافة إلى ذلك فقد ألف ابن حماد كتاب "ملوك بني عبيد وسيرتهم" وله أيضا كتاب "الأعلام بفوائد الأحكام"[1]، وإلى جانب التأليف في التاريخ اهتم ابن حماد بتلخيص الموسوعات التاريخية الإسلامية المعروفة مثل كتاب "ابن جرير الطبري" الذي وضع له ملخصا.

أما في ميدان التأليف الجغرافي، فليس بين أيدينا من الوثائق مما يؤكد أو ينفي ظهور مؤلفات خاصة في الجغرافيا[2].

1- عثمان الكعاك، بلاغة العرب. . .، ص26.

2- بن قربة، المرجع السابق، ص211.

الفصل الرابع:

العمارة والفنون

- المبحث الأول: العمران
- المبحث الثاني: الفن
- المبحث الثالث: أثر الحضارة الحمادية

المبحث الأول: العمران

شهدت الدولة الحمادية الكثير من المهام العمرانية كالبناء والعمارة والهندسة، ولقد اعتنى الحماديون بالفن المعماري اعتناًء كبيرا، وكانت الخطوة الأولى من قبل المؤسس حماد بن بلكين في سبيل تعمير مدينته الناشئة، وذلك بأن نقل إليها(القلعة) السكان، وبهذا فتح أبواب مدينته على مصراعيها لكل الراغبين في الاستقرار بها[1].

وهكذا أنشأت الدولة الحمادية حضارة من أرقى الحضارات من خلال بناء القصور والأبراج التي قام بها حماد ومن جاء بعده من أمراء خاصة الناصر[2]، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ بونابي: "...فقد كانت فاتحة خروج البربر من الخيام والظواعن والقياطن من الشروع في حركة العمران والتي بلغت مداها في عهد المنصور بن الناصر بن علناس، الذي كان مولعا بالبناء، حضر ملك بني حماد، وتأنق في اختطاط المباني، وتشييد المصانع، وبنى القصور وغرسوا المياه..."[3]، ويقول صاحب الاستبصار: "فقد ابتنى أبناءه القصور وغرسوا الجنات وأكثروا من المنتزهات، وجلبوا إليها المياه وأجروا بها سواقي وجداول وفرقوا المياه بالحارات والدور والمساجد في القنوات، فضلا عما بها من الصهاريج، ونظموا لها أبواب منها باب الجنان، يخرج منه على جسر على المسيلة، وباب جراوة من جسر على وادي فرج"[4].

1- بن قربة، المرجع السابق، ص262.

2- عبد الفتاح الغنيمي، المرجع السابق، ص223.

3- الطاهر بونابي، **الدولة المركزية بقلعة بني حماد التأسيس والتداعيات**، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع 7، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 2006م، ص50.

4- بن قربة، المرجع السابق ، ص319.

ومن خلال الحفريات التي قام بها الباحثون والأثريون(مثل بلانش وبلييه) تبين لنا مدى التقدم الذي أحرزه الحماديون من خلال إبداع تشييد القصور والأسوار والمساجد وغيرها من البنايات[1]، حيث قاموا بإحضار المهندسين من إفريقية ومن المشرق لتشييد البنايات المختلفة[2].

ومن بين الصعوبات التي أعاقت دراسة طراز المباني الحمادية سواء كانت مدنية أو دينية، أو حربية هي أنها لم تلق عناية الكتّاب والمؤرخون مثل بقية المدن الإسلامية الأخرى كالقاهرة وبغداد، ما عد بعض الذُ تف والأوصاف الموجزة التي تضمنها كتاب "العبر" لابن خلدون، "وكتاب نزهة المشتاق" للإدريسي، حيث نجد بعض الإشارات إلى قصور الملك والكوكب والمنار والسلام من غير أن يرشدانا إلى تفاصيل تخطيطها وبناءها، ودورها الوظيفي والاجتماعي حينئذ، وقد أهمل هؤلاء المؤرخين والجغرافيين أيضا الإشارة إلى تخطيط المسجد الجامع، وقصر المنار.

1- العمارة الدينية:

تشمل العمارة الدينية المساجد والزوايا والأضرحة، وغيرها مما له صلة بالحياة الدينية عند المسلمين، وفي مقدمة هذه المؤسسات المساجد، التي تعتبر قلب المدينة الإسلامية النابض.

أ-المسجد الجامع:

لقشيّ د الحّماديون الكثير من المساجد والتي من أهمها المسجد الجامع(الأعظم) ولقد كان كثير الشبه في تخطيطه بمسجد القيروان، إضافة إلى كونه الجامع الرئيسي الكبير الذي يعتبر أول مسجد حمادي أقيم في المغرب الأوسط منذ تأسيس القلعة، وهو أهم مرفق في المدينة، يدل على طابعها الإسلامي ومركزها الحقيقي[3]، إذ يقع الجامع قرب دار الإمارة أو قصر البحر، ويعتبر

1- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص276.

2- محمد الطمار، الروابط الثقافية . . .، ص153.

3- ليفي بروفنسال، **سلسة محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها**، تر: محمد الهادي شعيرة، القاهرة، 1951م، ص296.

هذا الأثر الذي لا تزال بقاياه قائمة حتى اليوم أول عمل فني معماري أقامه بنو حماد منذ وصولهم إلى الحكم.

والمسجد على شكل مستطيل يتربع على مساحة أبعادها 53.20م طولا، 60.20 عرضا[1]، وهو مفصول بين الصلاة بجدار ذو أبواب، كما كان مفروشا ببلاط أبيض، ومحاط برواق، وفي وسطه جبّ يبلغ طوله 11.15م وعرضه 5.40م[2]، وله مئذنة يبلغ ارتفاعها 25م[3]، وهذا الارتفاع ليس بالارتفاع الحقيقي لمئذنةبل تزيد أكثر من ذلك، حيث يُ قال أنها كانت من شدة طولها ذاهبة إلى السماء، وهي على شكل برج مربع مبنية من الحجر ولها باب عرضه 2.40م، ويؤدي إلى سلم يدور حول نواة مركزية مربعة وعدد أدراج السلم 127، وعرضه 1.10م.

ب-مسجد (مصلى) قصر المنار:[4]

هو عبارة عن مبنى صغير بالقصر يشغل مساحة بسيطة مقاساتها (1.70 × 1.80م) على شكل مربع تقريبا يُ دخل إليه من باب اتساعه 74سم، وجداره الشمالي الذي يفصله عن فناء القصر ارتفاعه 76سم وعرضه 1.20م، أما جداره الغربي فعرضه 1.80م وسمكه 76سم، بينما ارتفاعه 1.03م، والجدار الجنوبي لهذا المسجد ارتفاعه 2.20م، يحتوي على محراب فتحته نصف مستديرة[5]، وقد اكتسى هذا المسجد أهمية كبيرة نظرا لكونه أصغر مسجد في العالم الإسلامي كله[6]، إضافة إلى أنه يعتبر المسجد الوحيد التابع لقصر يرجع تاريخه إلى العصر الإسلامي[7].

1- رشيد بورويبة، **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1981م، ص210.
2- نفسه، ص212.
3- إسماعيل العربي، دولة بني حماد . . .، ص124.
4- أُكتشف هذا المسجد الصغير الأستاذ بورويبة أثناء حفائره التي أجراها بالقلعة سنة 1968.
5- بن قربة، المرجع السابق، ص270.
6- رشيد بورويبة، الدولة الحمادية . . .، ص220.
7- بن قربة، المرجع السابق ، ص274.

2- العمارة المدنية:

بنى بنو حماد عدة قصور في القلعة وبجاية، وقبل البدء في وصف العمائر والقصور الحمادية لابد أن نشير إلى ظاهرة التوسع العمراني والمعماري التي عرفتها الدولة الحمادية، إذ أصبحت تتألف من مدينتين متجاورتين حسبما أشار إليه بعض المؤرخين والشعراء[1]، ومما يدل على وجود مدينتين في القرن الخامس الهجري ما ذكره لسان الدين بن الخطيب الذي تحدث عن الدولة الحمادية في عهد الناصر فقال: "ولما استقام الأمر للناصر بن علناس كره مجاورة بني حماد أكناف القلعة المنسوبة إليهم، إذ كان يسكنها من فرسان صنهاجة اثنا عشر ألف فارس، فبنى قريبا منها بالجبل مدينة وقصورا شامخة، مسماة بأسماء عدة، واحتفل بالجامع الأعظم إلى ما هو مذكور في تاريخ صنهاجة، وقد محى اليوم محاسنها الزمان وغير حالها الحدثان"[2].

ولمعرفة أسماء بعض القصور التي كانت لها مكانة نذكر بعض الأبيات من هذه القصيدة الشعرية التي دونها الشاعر والمؤرخ ابن حماد:

إنّ العروسيـــن لا رسم ولا طـــــل فإن ترى ليس إلاّ السّهل والجبـل.

وقصر بلارة[3] أودى الزمـــــان به فأين ما شاء منها السـادة الأول.

قصر الخلافة ! أين القصر من خرب غير اللّجين وفي رحـــابها زحل.

وليس يبهجنـــي شيء أسر بـــــــه من بعد أن نهب بالمنهج السّبـل.

ومـــــا روى الكوكب العلوي معتصم وقد عرى الكوكب التغيير والّندل.

وقد عفـا قصر حماد فلـــــــيس له رسم ولا أثر بـــــاق ولا طلل.

1- بن قربة، المرجع السابق، ص276.

2- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص، ص94، 95.

3- بلارة: ابنة تميم بن المعز بن باديس، تزوجها الناصر بن علناس عام 470هـ وبنى لها هذا القصر الذي عرف باسمها ومعناه البلور. ابن عذاري، المصدر السابق، ص309.

ومجلس القوم قد هب الزمـــــــان به بحادث قلّ فيه الحـادث الجلل !

وغن في القصر قصر الملـــك معتبرا لمن تغّر به الأيـــــام والدّول!

وما رسم المنار الآن ما ثلـــــــــه لكّنها جبر يجري بها المثـــل!

حتى المصلّى محت آيـــاتها وعفت ! إلاّ جدارا ومـا طلّت به الطلال.

كرجع الطّرف كـــانت غبـــــرة فما تراه كذلك العمر والأجـل[1].

أ- قصر المنار:

يسمى أيضا برج المنار أو قصر الإشارات[2]، يعتبر من أبرز معالم الإبداع الهندسي الحمادي،يوُرجح أن الناصر هو الذي بدأ في إنشائه، ثم أكمله المنصور، ويقول ابن خلدون حول الشخص الذي بنى هذا القصر: "وكان المنصور هذا جماعة مولعا بالبناء، فهو الذي حضر بني حماد، وتأنق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء للمياه في الرياض والبساتين، فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام"[3]، ويشتمل القصر على عدة مباني متلاصقة بعضها في بعض، منها جنوبية ومنها شمالية[4]، كما يتكون من بهو فسيح وقاعات، وتحت البهو سرداب يخزن فيه الأسلحة[5]، وهو يمثل بدائع الزخرف الفني الإسلامي القديم، وقد لاحظ بعض مؤرخي الفن الإسلامي تشابه ما بين قاعات قصر المنار، وقصر القبة

1- بن قربة، المرجع السابق، ص، ص276، 277.

2- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص277.

3- ابن خلدون، العبر، ج6، ص، ص206، 207.

4- رشيد بورويبة، الدولة الحمادية. . .، ص، ص251، 252.

5- حسين مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر من القرن 6م إلى القرن 19م**، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، 1992م، ص690.

العزيز العربيين في صقلية، ومن ثم فإنه من الممكن الافتراض بأن يكون مهندسوا هذين القصرين قد استوحوا نماذجهم من قصر المنار[1].

ومشهد هذا القصر الحصين يُعطينا فكرة عن مدى قوة بني حماد وإعطائهم للفن المعماري أهمية بالغة، وهذا القصر يعلوه منار، وقد لُقب بعدة تسميات منها برج المنار، ويقال بأن الحماديين قد عهدوا إلى مهندس مسيحي اسمه بونياش إقامة هذا الصرح[2].

ولهذا البرج قاعدة مربعة يبلغ ضلعها 20م، كما يشتمل على قاعدتين موضوعتين إحداهما فوق الأخرى، فالقاعة السفلى مربعة ومسقفة بقبة، والقاعة العليا صليبية الشكل، وكان ممر الحراس يحيط بالقاعدتين ويرتفع إلى أعلى البرج حيث نجد آلة بمرايا [3].

ب- **قصر البحر:**

كان قصر البحر الذي تعاون الناصر والمنصور في إنشائه أبرز القصور الحمادية، وقد امتاز بتخطيطه الذي أصبح فيما بعد مثالا يحتذيه المعماريون في صقلية وغرناطة وغيرهما، سمي أيضا بدار البحر[4]، وقد وصفه صاحب الاستبصار عند وصفه لمدينة القلعة في قوله: "بنى حماد بالقلعة مباني عظيمة وقصور منيعة متقنة البناء عالية السّناء منها قصر يسمى بدار البحر، وقد وضع وسطه صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق، بداخله ماء كثير مجلوب على بعد وهذا القصر مشرف على نهر كبير وفيه الرخام والسواري ما يقصر عنه الوصف وفيه قصور غير هذا، ومباني عجيبة، وفيه آثار للأوائل عجيبة"[5].

1- إسماعيل العربي، دولة بني حماد. . .، ص126.

2- رابح بونار، المرجع السابق، ص210.

3- رشيد بورويبة، الدولة الحمادية. . .، ص268.

4- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص276.

5- الاستبصار، المصدر السابق، ص168. وأيضا: الجيلالي، المرجع السابق، ص262.

وقصر البحر يقع وسط مدينة شمال المسجد ويشمل على عدد كبير من المباني، والبناية الرئيسية هي قصر الأمير كما كانت هناك بنايات أخرى للاستقبالات الرسمية والتي بدورها تشتمل على قاعات[1].

أما داخل القصر فتقع البحيرة التي أخذ القصر اسمه منها، وقد كان هناك اختلاف في تحديد مساحة وعمق هاته البحيرة، فمنه من يقول أنها على امتداد مساحة لا تقل عن 67م طولا و47م عرضا، وعمقها 60م[2]، والبعض الآخر يقول أنها بركة كبرى لها من طول ما يناهز 60م وفي عرضها 45م، بحيث تلعب فيها الزوارق، كما يحيط بالبركة القاعات والرواقات المزينة بنقوش جميلة بالفسيفساء بحيث حظي دار البحر بعناية خاصة من الأمراء غير أنه لم يبق منه إلاّ الأطلال والصومعة التي لا تزال قائمة[3].

ج- قصر السلام:

يعد قصر السلام من أهم البنايات التي كان لها أثر عظيم في الفن المعماري عند بني حماد، فقد قام بالبحث عنه أثناء الحفريات بالقلعة الأستاذ "لوسيان قولفان"، وذلك سنة 1925م وتتجلى لنا معالم القصر المعمارية في كونه ينقسم إلى قسمان، قسم سفلي وقسم علوي، فالقسم العلوي له سور من الحجر، مربع في زواياه ببروج، وهي تشبه في تشييدها قصور الأمويين بالشام والأردن، وله باب وواجهة مزينة والمدخل يؤدي إلى قاعة يبلغ طولها 17.75م، وعرضها 2.75م، أما القسم السفلي فيوجد به صحن عرضه 15م، بالإضافة إلى غرف مختلفة الشكل[4].

1- إسماعيل العربي، دولة بني حماد...، ص125.

2- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص، ص276، 277.

3- رشيد بورويبة، الدولة الحمادية...، ص270.

4- بن قربة، المرجع السابق، ص- ص286- 294.

د - قصر الكوكب:

يعتبر قصر الكوكب من بين القصور التي احتفظ لنا التاريخ باسمها وبصفاتها إذ يعتبر من القصور النادرة التي أسسها المنصور بعد قصر السلام والمنار كما ذكرنا[1].

إلاّ أن هذا القصر لم تتناول المصادر معلومات كثيرة عنه نظرا لأنه لم تُجرى فيه حفريات، ومن المحتمل أن هناك العديد من القصور قد أقيمت بالقلعة غير أن الحفريات لم تصلها.

وفي بجاية–على نحو أقوى وأعمق- ازدهرت حركة التقدم العمراني، وقد كان للناصر والمنصور الأثر الكبير في تحقيق هذا الازدهار، ويعتبر **قصر اللؤلؤة** الذي أنشأه الناصر من أعجب قصور الدنيا[2] في عصرهوقد بُ ني حوالي سنة 470هـ/1077م[3]، ويبدوا أن قصر اللؤلؤة هذا كان أكثر من قصر يضمها سور على غرار "دار البحر" في القلعة، لأن صاحب الاستبصار يتحدث عنه على أنه: "موضع به قصور، لم ّير الراؤون أحسن منها بناًء، ولا أنزه موضعا، فيها طاقات مشرفة على البحر، عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة والمنحية والمجالس المقرصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها، وقد نُ قشت أحسن نقش، وأنزلت بالذهب واللازورد، وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة وصّورت فيها الصور الحسنة، فجاءت من أحسن القصور وأتمها منتزها وجمالا"[4].

1- رابح بونار، المرجع السابق، ص217.

2- ذكر ابن خلدون أن المنصور بانيه والصحيح أنه الناصر ويحتمل أن الناصر قد أضاف بعض التحسينات. ابن خلدون، العبر، ج6، ص357.

3- الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص213.

4- الاستبصار، المصدر السابق، ص130.

وقد بنى الناصر قصر بلارة، نسبة إلى عروسه بلارة بنت تميم بن المعز[1] وقصر العروسين[2].

أما ابنه وخليفته المنصور فبالإضافة إلى مآثره المعمارية في القلعة(سبق وأن ذكرناه) فقد كانت له مآثر في بجاية من أبرزها قصره الذي وصفه ابن حمديس الصقلي، وتحدث عن ساحاته، وأضوائه التي تحول ليله نهارا وأسوده التي يخرج الماء من أفواهها على جانبي الأحواض، وثمراته البديعة، وأشجاره الذهبية الساحرة، وصهاريجه، وأبوابه المصفحة المزخرفة وسقفه ذو النظرة السماوية[3].

إضافة إلى قصور أخرى أقيمت في بجاية وهي **قصر الخلاص، النجمة والميمون**[4]، كما أنشأ يحي **قصر النزهة**، لكن النورمان حطموه حين هاجموا المدينة[5].

3-العمارة العسكرية:

أ- الأسوار:

بعد أن أكمل حماد بن بلكين بناء مدينته وتمصيرها، وأصبحت مهيأة لاتخاذها مقرا جديدا لقيادته، بدل مدينة أشير، رغب في أن يحقق لها الصفة العسكرية، حتى تكون في مأمن من هجمات الأعداء.

1- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ص340.

2- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص95.

3- **ديوان ابن حمديس الصقلي**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1960م، ص545.

4- **بجاية (كتالوج)**، سلسلة الفن والثقافة، إشراف د بورويبة، نشر وزارة الأخبار الجزائرية، مدريد، 1970م، ص- ص40-66.

5- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص387.

ولا تشير المصادر إلى بناء هذا السور، والوقت الذي أُنجر فيه باستثناء الجغرافي الإدريسي الذي أعطانا بعض الإشارات عن هذا السور الذي أحيطت به القلعة، والذي كان كله من الحجارة[1].

يمتد هذا السور على مساحة سبع كيلومترات، وارتفاعه حوالي متر واحد، وتتخلل السور كتل صخرية تتميز بالانحدار تارة وبالصعود تارة أخرى، ويٌ رجح أن يصل ارتفاعه إلى أكثر من خمس أمتار حتى يخفي المدينة ويحجبها عن الرؤية الخارجية، أما اتساعه فيتراوح بين 1.20م و1.60متر، يمتد السور جهة الغرب مسايرا قمة جبل الغورين، ثم يسير حول جبل كيانة ثم يميل إلى الانحدار على السفوح المطلة على نهر وادي فرج في المكان الذي يلتقي فيه الجبل بالسهل، ومن المحتمل أن سور القلعة كان مدعما بأبراج للمراقبة مقارنة مع أسوار المدن المغربية مثل مدينة فاس[2]، وتنفتح من هذا السور ثلاث أبواب رئيسية، كانت بمثابة المداخل الرئيسية من وإلى القلعة ألا وهي:

-باب الأقواس: مدخل أو باب الأقواس، يقع في الجهة الشمالية، وبما أن الصفة الحربية هي الطابع المميز لمباني القلعة، فطبيعي أن مدخل الأقواس كان مدّعما ببرجين كبيرين للمراقبة والحراسة.

ومدخل الأقواس كما هو واضح من اسمه فهو يعتبر من المداخل الحربية ذات الموقع الإستراتيجي خصوصا وأنه يشرف على مكان وعر وصعب، يصعب اقتحامه بسهولة من قبل الأعداء المهاجمين للمدينة، ونحن لا نستبعد أن يكون هذا المدخل من أهم مداخل القلعة جميعها لأهمية موقعه الإستراتيجي من جهة، وقوة وضخامة بنائه من جهة أخرى[3].

1- عثمان الكعاك، **موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الإحتلال الفرنسي**، مراجعة: أبو القاسم سعد الله وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د ت، ص187.

2- بن قربة، المرجع السابق، ص320.

3- نفسه، ص321.

-باب جراوة: يعتبر المدخل الثاني من مداخل القلعة، عرف باسم باب جراوة نسبة إلى القبيلة التي تحمل هذا الاسم[1]، يقع بالجهة الجنوبية من سور القلعة، ويعتبر المدخل الوحيد إلى القلعة حيث يتصل بجسر الذي يعتبر أحد المسالك الرئيسية الموصلة إلى القلعة آنذاك.

-باب الجنان: يقع هذا المدخل شرق المدينة، ووقوعه في هذه الجهة أكسبه أهمية سياسية واقتصادية، فهو يربط المدينة بالمسيلة، ومنها إلى الطريق المؤدي إلى القيروان، وهدف الحّماديين من استعمال هذه المداخل كان لاتقاء خطر اقتحام البوابة لاسيما عندما يكون المدافعين في حالة انسحاب إلى الداخل بعد خروجهم منها، وكانت حجارة الدبش هي المادة الأساسية الأكثر استعمالا تتخللها في أماكن متعددة مادة الطين الممزوج.

ومن خلال عمليات التحري والاستكشاف التي قام بها الأثريون، يظهر أن هذا السور لم يكن مدعما بأبراج المراقبة، على غرار أسوار المدن والقلاع الإسلامية، باستثناء برج المنار[2].

ب - الأبراج:

كانت المباني التي تدّعم وتحصُن المدن والقلاع في العصر الإسلامي لابد أن تتميز عن الأسوار العامة، وذلك باحتوائها على أجزاء معمارية خاصة، والقصد منها الحماية والمراقبة، وتعرف باسم الأبراج والمراقب، والتي يجب أن يتواجد فيها باستمرار حامية من العسكر والجند.

أما البرج من الناحية اللغوية فهو عبارة عن بناء حربي مربع أو مستطيل أو مستدير الشكل، يبرز في سمة الجدار والأسوار[3].

ويبدوا من بقايا الآثار أن الحماديين أقاموا أبراجا للمراقبة والدفاع منها "برج المنار"، وبرج المنار هذا يشكل جزءً كبيرا من مجموع البنايات التي تؤلف منشأة القصر، ورغم كون وظيفة البرج

1- بن قربة، المرجع السابق، ص321.

2- نفسه، ص322.

3- نفسه، ص314.

الأساسية المراقبة والحراسة والاتصال، فقد استعمل أيضا كمسكن للأمراء الحماديين في أوقات اضطراب الأمن أو هجوم الأعداء.

والأمراء الحماديون على الرغم من حرصهم الشديد على إظهار دولتهم بمظهر القوة والهيبة، وأنها ذات سيادة كاملة، فلم يقبُلوا على بناء الأبراج بمدينتهم، لأن الطبيعة قد وهبتها حصانة طبيعية لوقوعها أسفل جبل تاقربست الذي يضمن لها الحماية من الشمال والبرج من الجنوب، فهذا البرج يعكس صورة قوة الدولة الحمادية ويكشف عن بعض نظمها العسكرية، ويحكي جانبا هاما من حياتها السياسية والعسكرية في الحرب والسلم[1].

المبحث الثاني: الفن

كان للحياة الهائلة والمترفة التي حققها الحماديون لأنفسهم منذ عهد الناصر بن علناس أثرها في إبداع المجتمع الحمادي في كثير من الفنون، وإذا كان الإبداع الفني نتيجة من نتائج ازدهار المجتمع ورخائه وخلوه من المشاكل الخارجية والداخلية المهددة لحياته، إذا كان هذا فإن السياسة الحمادية التي قامت– إلى حد كبير - على أساس البناء الداخلي، وتوطيد العلاقات السلمية بشتى السبل من الجهات الخارجية، كانت أبرز عامل في الازدهار الفني الذي تمتعت به دولة بني حماد في أكثر من نصف عمرها[2].

حيث كان المجتمع الحمادي مفتوحا يتلقى كل الباحثين عن مرفأ آمن، فقد استطاعت الفنون الحمادية أن تأخذ وتعطي وأن تتبادل التأثير والتأثر مع الأندلس ومع المشرق، محتفظة لنفسها بخصائص مستقلة، وبحق التصدير في كثير من نواحي الإبداع الفني، وبخاصة فن الهندسة المعمارية والزخرفة، "إن شهرة بني حماد قد ذاعت حتى طارت إلى الأندلس، ولقد شاع إيواؤهم للمغلوبين على أمرهم والمطرودين".

1- بن قرية، المرجع السابق ص318.

2- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص272.

وقد كان الخط والحفر والرسم والنقش والنحت والزخرفة، من الفنون التي عني بها الحمّاديون، وقد تطورت هذه الفنون مع تطور الدولة[1].

1- الهندسة المعمارية:

لقد اهتم الحماديون بفن الهندسة المعمارية اهتماما كبيرا، بحيث شاعت شهرتهم وبلغت الأندلس.

أ-المدنية:

لقد تمتعت بعض المواقع في المغرب الأوسط مثل أشير وقلعة بني حماد بعزلة نسبية وبصلابة المواد المستعملة، إلاّ أن كل العوامل قد ساهمت بالعكس من ذلك بعد الخراب والتدمير في إعادة استعمال الرخام والآُجر في بناء المراكز العمرانية المجاورة أو التابعة لنفس المنطقة ومع ذلك فقد كان معظم الأمراء الصنهاجيين بنّائين، إذ بنى زيري وبلكين مدينة أشير وغيرها من مدن المغرب الأوسط، وشّيد المنصور قصر صبرة المنصورية، وأقام حماد وخلفاؤه صرح القلعة، وبني الناصر وآخر أمراء بني حماد مدينة بجاية، ففي فن الهندسة المعمارية لعب "تراجع الجدران في الاتجاهين الأمامي والخلفي" المقتبس من الفن العراقي دروا كبيرا، إلى جانب إبراز الأروقة، وقد زُّينت الواجهات بمحاريب صغيرة شبه دائرية ترتفع من القاعدة وتنتهي بتقوس[2].

أما طريق التسقيف الأكثر استعمالا، فقد كانت القبة ذات الزوايا البارزة المتكونة من تقاطع قوسين في شكل نصف أسطواني، في حين كانت الغرف مزّينة من الداخل بمحاريب صغيرة ذات قعر مسطح وكانت قاعات القصور موزعة حول خمسة صحون، وهي تشبه قاعات وقصور

1- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص273.

2- حمادي الساحلي، المرجع السابق، ص432.

الأمويين في سوريا، وتُعد الحدائق والبساتين والأحواض والبرك، من العناصر الأساسية لقصور الأمراء كما كان البّنائون يميلون إلى بناء قصرين متقابلين، تفصل بينهما ساحة[1].

ب-العسكرية:

أما تحصينات المدن التي بناها الحماديون في المغرب الأوسط، فهي تتألف من سور مبني بالحجر الخام، ومحصن ببروج متماشية مع شكل التضاريس، ومن خصائصها أنها تتمثل في هضبة منحدرة، وتستند إلى مرتفع صخري يقوم مقام المرصد والمحرز، وفي القلعة تمتاز أقواس الجسور الممدودة على الوهاد بشكلها الفارسي وفي يسر[2].

2- الزخرفة:

لقد برز فن الزخرفة الحّمادي في عدة أشكال مختلفة، وأعتبر كفن متقدم بملامح عربية إسلامية وبربرية أيضا، ويدل ذلك على تقدم كبير في هذا الفن وغيره من الفنون كالرسم والنقش[3].

أ-الزخرفة الهندسية:

تتكون العناصر الهندسية من الخطوط المتقاطعة التي تندمج في الشريط الزخرفي مكونة زاوية قائمة تحدد المربعات، وعند تقاطع تلك الخطوط تكون نجوما ثمانية الرؤوس وهذا الأسلوب من التشكيلات الهندسية شاع استخدامه بشكل خاص في زخارف القصر وبالتحديد في قاعة الشرف بقصر المنار[4]، وربما هذا النوع من الزخرفة أُستمد من الأندلس بدليل وجود أمثلة مبكرة لهذه الزخارف بالأندلس في الفترة الأموية، وهناك أيضا زخرفة هندسة على هيئة صليب وإلى

1- حمادي الساحلي، المرجع السابق، ص432.

2- نفسه، ص433.

3- إسماعيل العربي، دولة بني حماد . . .، ص127.

4- بن قربة، المرجع السابق، ص343.

جانب المربعات استعملت المثلثات التي كانت في الغالب تزُين بعناصر نباتية ثم شاع استعمال الدوائر والملحقات التي ظهرت في قصر السلام[1].

ومن خلال هذه العناصر الزخرفية يظهر لنا أن الفنان الحمادي كان يسعى لاستغلال جميع التصميمات الهندسية بتشكيلاتها وتفريعاتها المختلفة في إضفاء الطابع الزخرفي والجمالي على المباني ومختلف الصناعات، ومهما كانت طبيعة المادة المنفذة عليها.

ب-الزخرفة النباتية:

شغلت عناصر الزخرفة النباتية حيزا كبيرا في الزخارف الحمادية، فقد كان الفنان الحمادي كغيره من فناني العالم الإسلامي يميل إلى الزخارف النباتية لذلك اتخذ منها مادة خصبة للحلية والزينة، فالعناصر النباتية التي استغلت استغلالا جيدا في إثراء مجال الزخرفة بشكل عام هي الزهرة، وسعف النخيل، والمراوح النخيلية، وقد كانت تنُحت على الرخام الأبيض وهذا النوع من الزخرفة كان معروفا لدى الفن الأموي بالأندلس حيث بلغ درجة كبيرة من الجمال، وسوف يصبح هذا النوع من الزخرفة المفضل بعض الشيء، والذي كان يطبع أعمال القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين وهذا النوع من الزخرفة زُيّنت به سقوف المساجد مثل المسجد الجامع بالقيروان[2].

ج-الزخرفة الكتابية:

يعتبر الخط العربي بشكل عام أحد الخصائص المميزة للفن الإسلامي، وقد احتلت الكتابات الكوفية مكان الصدارة في الزخارف المعمارية، وقد عثر في القلعة على عدة أنماط من الخطوط اُكتشفت أثناء الحفريات على حجارات القبور، وعلى أقواس الأبواب وكلها خطوط كوفية[3]، كما

1- بن قربة، المرجع السابق، ص343.

2- نفسه، ص348.

3- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص274.

عثر على لوحة جميلة لباب منقوشة عليها خطوط كوفية[1]، أما بخصوص أشكال الحروف فقد نُفذت ببساطة وجمال، وهناك قطع كثيرة تحمل في معظمها كتابات غير تامة لا تقرأ البتة، الأمر الذي يعقّد على الدارس إعطاء تأويل أو تفسير بخصوصها، وهذه الظاهرة الزخرفية مازالت معروفة في بعض بيوت الطبقة الثرية في بعض المدن.

ومن بين عناصر الزخرفة الكتابية الأشرطة التي تزين المسجد الصغير بقصر المنار، أما بالنسبة للنقوش الكتابية الكاملة، والتي يمكن قراءتها فهي الكتابات الشاهدية أو الجنائزية التي نفذت على شواهد القبور الحمادية[2].

كما كانت هناك رسوم آدمية على بعض الآثار، ترجع إلى عهد الحماديين، وأقدم ما نعرفه عن الرسوم الأدمية أنها نفذت على الأواني الخزفية كرسم صور الأطفال، حيث وصلتنا صورة نصفية لوجه طفل وصور الملاحين يمسكون بحبل، وصورة تمثل رسم رجلين يقفان إلى جوار شجرة، إضافة إلى رسوم أخرى عبارة عن صورة فارس يعتلي جواده[3].

هذا إضافة إلى الرسوم الحيوانية، مثل الأسد والغزال والخرفان والطيور، ومن مظاهر الصيد عند الحماديين رسم الفارس على جواده متقلدا سيفه، وهذه الرسوم تدل على شغف الحماديين في عصرهم برياضة الصيد، وهذا ما يفسر رسوم حيوانات الصيد في زخرفة الأطباق والأواني، والذي كان نتيجة لتأثر الحماديين بالفاطميين في صناعة الخزف مادة وشكلا وزخرفة واستعمالا[4].

1- محمد الطمار، الروابط الثقافية . . .، ص185.

2- بن قربة، المرجع السابق، ص350.

3- نفسه، ص312.

4- نفسه، ص353.

3- الخزف والفخار:

وبخصوص نشأة وانتشار الصناعات الخزفية فقد أكد الباحثون وجودها، لاسيما الأستاذ جورج مارسيه[1]، ووفرة القطع والشقفات الفخارية المتنوعة الأشكال التي ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الهجريين خير دليل مادي على معرفة السكان العميقة بصناعة الفخار والخزف اللذين ازدهرت صناعتهما ازدهارا كبيرا، كما أن درايتهم الفائقة بتحضير الألوان المعدنية والطلاءات والدهانات المختلفة كل ذلك يؤكد الممارسة العملية والبراعة في الإنتاج الفني.

ولقد عثر الأثريون على قطع عديدة وأنواع مختلفة من الخزف والفخار ذي البريق المعدني والطيني الأزرق والأبيض المنمق بالصليب والنجوم ذو ثمانية أضلاع، فكلها كانت موجودة في قصور القلعة قبل أن تظهر في كل من قصور الحمراء والأندلس[2].

فبحلول منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي قام العرب الهلاليون بغاراتهم على جميع بلاد إفريقية وألحقوا بهم الضرر المادي، ومع ذلك فإن الفن ظل منتشرا في البلاد، ومن قبلهم جاء الفاطميون والزيريون في القرن الرابع والخامس الهجريين، وكانت المدن باعتبارها مراكز عمرانية تشكل أهمية كبيرة في حقل تطور الفنون والصناعات مثل القيروان، المهدية، قلعة بني حماد، بجاية وتلمسان حيث نشأت صناعات جديدة من بينها صناعة المعادن والزجاج[3].

أما في القلعة وبجاية، فإن الصناعات الخزفية التي كانت منتشرة فيهما، جُلها من أصل مشرقي، والواقع أن الحماديين الذين كانوا قد ارتبطوا بالفاطميين في عدة مناسبات قد تأثروا بهم في صناعة الخزف، وأن ظاهرة انتقال الخزافين من مكان إلى مكان حاملين معهم تقاليد بلادهم وأساليبهم الفنية كانت مألوفة بين البلاد الإسلامية[4]، لذلك يجب أن نضع في الاعتبار هجرة

1- عبد الفتاح الغنيمي، المرجع السابق، ص326.

2- إسماعيل العربي، دولة بني حماد . . .، ص127.

3- بن قرية، المرجع السابق، ص359.

4- نفسه، ص360

الفنانين وتنقلاتهم من مكان إلى آخر لأنها تفسر في الواقع بعض مظاهر التأثير المشرقي على خزف المغرب الإسلامي عامة والخزف الحمادي خاصة، والتي استمرت حتى أواسط القرن السادس الهجري، منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وهذا يعني بأن الخزافين المشارقة قدموا من المشرق واستقدموا بإفريقية وغيرها من بلاد المغرب الأوسط، حيث فتحوا ورشات عمل وأنتجوا فيها أواني خزفية حسب أساليبهم المحلية الخاصة[1].

أما الفخار، فقد كانت هناك عدة أنواع منه[2]: فخار غير مطلي، وفخار مطلي بطلاء زجاجي شفاف، يعكس لون العجينة الحمراء، والفخار الأحمر، ومن غير شك فإن وفرة هذه المادة تدل دلالة واضحة على ازدهار صناعتها وإنتاجها الوفير، ودليل ذلك القطع الكثيرة والشققات التي جُمعت إلى جانب غناء الألوان المستعملة وطريقة صناعتها الدقيقة والمتنوعة.

والحقيقة أن صناعة الفخار والخزف بأنواعهما المختلفة كانت على يد خزافين محليين أو من مدن أخرى، أما بالنسبة لأساليب الصناعة الحمادية لهذه الأنواع، فقد تأثرت بنفس الطرق والتقنيات المعروفة في المشرق الإسلامي والأندلس، ويقول جورج مارسيه: "يظهر أن صناعة الفخار يومها بلغت مبلغا عظيما، ويظهر عليها تأثير الفرس ومصر فنا وعملا"[3].

ولقد ساهمت الأفران ودولبة التخزيف في بعث الصناعات وانتشارها بالدولة الحمادية ولذلك كان يختار لها مكانا مناسبا فنجد الأفران الحمادية على سفح جبل الرحمة في المنطقة المجاورة لباب الجنان جنوب المدينة.

وإذا كانت صناعة الفخار والخزف كغيرها من الصناعات الأخرى تتطلب توفر المادة الخام اللازمة للصناعة وهي الطين، فالذي لا جدال فيه أن المنطقة كانت غنية بهذه المدينة، بدليل العثور على مجموعة من الأواني الخزفية ذات الأشكال المختلفة وهي على عدة أشكال: أواني

1- بن قربة، المرجع السابق، ص360.

2- نفسه، ص، ص361، 362.

3- محمد الطمار، الروابط الثقافية . . .، ص159.

ذات مقبضين (شكلها إما بيضوي أو مستدير)، وأواني ذات مقبض واحد، وقد وجدت بأعداد كبيرة وكانت مزينة برسوم جميلة مطلية بطبقة ذات لون أخضر[1].

وإذا عدنا إلى موضوع القرميد الحمادي من ناحية الوظيفة والاستعمال فيبدوا أن القرميد ذي المقاسات (0.52سم × 0.20سم) كان يستعمل في الأماكن الأكثر اتساعا بينما النوع الثاني الذي تبلغ مقاساته 0.10 سم فيستخدم في الأماكن الضيقة، كما استعمل الآجر في تبليط أجزاء من قصر المنار، في حين استخدم الخزف المطلي في التجويفات المقعرة السطوح في المئذنة.

وهذا النوع من الخزف قد انتشر خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وكثر الإقبال عليه في المغرب الأقصى[2].

إضافة إلى فن الخزف والفخار، وجد فن آخر ألا وهو فن النحت، والذي ارتبط في الحضارة العربية الإسلامية بالفنون التطبيقية الأخرى، وكان يسير جنبا إلى جنب مع مادتي الحجر والجص بالعمارة.

ومع مرور الوقت دخل فن النحت عالم صناعة الأخشاب والعاج والزجاج والبلور الصخري والخزف والمعادن والمنابر والأحواض المائية وغيرها.

ولعل في مقدمة هذه الأعمال التي عثر عليها علماء الآثار تتمثل في شكل أو رسم أسدين، أحدهما نحت على مادة الرخام الأسود والآخر من مادة الحجر الأصفر، ولقد تميز النحت في العهد الحّمادي بدقة الحفر، والميل نحو التقابل والتماثل، والمبالغة في زخرفة الخط الكوفي[3]، ومما يدل على ازدهار هذا الفن في العصر الحّمادي وجود بعض الآثار من تراث الحّماديين مثل

1- بن قربة، المرجع السابق، ص- ص363- 367.

2- نفسه، ص391.

3- نفسه، ص397.

شواهد القبور والمئذنة، ومحراب مسجد قصر المنار، والمحاريب الأخرى مثل محراب المسجد الجامع بقسنطينة[1].

4-صناعة التعدين:

إذا كانت لصناعة التعدين أثرها في تقدم الشعوب تقنيا وتكنولوجيا، فقد ورث المسلمون الصناعات المعدنية عن حضارات الأقطار التي فتحوها، حيث ازدهرت الصناعات منذ العصور القديمة، ووصلت مستوى رفيعا[2]، وفي بداية الأمر اقتبس المسلمون الأساليب الساسانية سواء من حيث الشكل أو الزخرفة ولاسيما في صناعة الأواني الفضية.

غير أنه لم يلبث أن طّور الصُنّاع المسلمون أساليب فنية راقية خاصة بهم ذات طابع إسلامي وشكلوا المواد المعدنية المختلفة كالذهب والفضة والنحاس والبرونز والحديد، ولكن يجب الإشارة إلى أن إنتاج المسلمين من الأواني الذهبية كان ضئيلا نظرا لكراهية استخدامها.

وفي هذا الإطار لا يفوتنا التذكير بأن التحف المعدنية التي وصلت إلينا من بلاد المغرب الإسلامي والأندلس، تعتبر أقل عددا من التحف التي وصلت إلينا من أية مادة أخر، ولعل ذلك راجع إلى أن كثيرا منها قد صهر قبل وصوله إلينا[3].

أما بالنسبة لبلاد المغرب الأوسط، ونقصد بها قلعة بني حماد وبجاية، فقد تضمنت بعض المصادر التاريخية والجغرافية معلومات هامة تدل على قيام صناعة التحف المعدنية فيهما، فيذكر الإدريسي أنه كان في مدينة بجاية على عهد بني حماد: "معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة،

1- بن قربة، المرجع السابق ص397.

2- حسن باشا، **الفن عند الشعوب الإسلامية**، مجلة الدارة (عدد خاص تذكاري)، ع 43، 1976م، ص157.

3- محمد عبد العزيز مرزوق، **الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس**، دار الثقافة، لبنان، د ت، ص169.

وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة"[1]، فكانت تستخرج المعادن من مناجم شتى مثل بجاية ومجانة التي عرفت باسم (مجانة المعادن)، أما النحاس فكان يستخرج من جبل كتامة.

أما فيما يخص نصيب بلاد المغرب الإسلامي والأندلس من هذه الصناعات، فتوجد بعض الإشارات التاريخية إلى أنه كان في مدينة فاس على عهد المنصور والناصر حسبما ذكر ابن أبي زرع داران للسكة واحد في كل عدوة، وكان بها اثنا عشر معملا لتسبيك الحديد والنحاس[2]، وأشار المقري من جهته إلى أنه يصنع في مدينة ألميرية آلات الحديد والنحاس[3].

أما عن أهم الطرق والأساليب التي استخدمت في صناعة التحف المعدنية فهما طريقتا: الطرق والصب في القالب، وكانت صناعة التحف المعدنية في القلعة لا تختلف كثيرا في أساليبها الفنية عن تلك التحف التي عرفتها مصر في العهد الفاطمي، والراجح أنهم عرفوا التحف المصنوعة على هيئة الحيوانات والطيور، ومن الأمثلة على ذلك تحفتان من صناعة البرونز على هيئة طائر عثر عليهما دوبليه، ومن أبرز هذه الصناعات:

أ-صناعة الأسلحة: وقد عني بها الحماديون نظرا لكثرة الحروب التي خاضوها، ويقول الإدريسي: "والقلعة كانت في وقتها وقبل عمارة بجاية دار الملك لبني حماد، وفيها كانت ذخائرهم مذخرة، وجميع أموالهم مختزنة ودار أسلحتهم"[4].

ب-صناعة التحف النحاسية والبرونزية: كان لمعدني النحاس والبرونز أهمية وعناية كبيرة في صناعة التحف إلى جانب الحديد، ومن التحف المصنوعة من هذين المعدنين، نذكر صناعة الأقفال والثريات والتماثيل الصغيرة، والصناعات البرونزية لقيت اهتماما وإقبالا شديدين من قبل

1- الإدريسي، المصدر السابق، ص319.
2- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص26.
3- المقري، نفح الطيب، ج5، ص319.
4- الإدريسي، المصدر السابق، ص117.

الصناع، الذين تركوا بصمات واضحة لاسيما فيما يتعلق بالدقة والجودة في إنتاج تحفهم ودليل ذلك أواني الأكل مثل القدور والغلايات وغيرها[1].

ج-الحلي وأدوات الزينة: كانت أغلب الحلى مصنوعة من الفضة، وهذه الصناعة كانت متصلة بتطور الحياة الاجتماعية والفنية، وهي بمثابة دراسة لمفاهيم جمالية وفنية، حيث أن صناعتها تخضع في أنواعها وأشكالها واستعمالها للعادات والتقاليد الاجتماعية المتوارثة، نذكر منها على سبيل المثال الأقراط والخواتم والأسوار[2].

وإلى جانب هذا فقد عثر على مجموعة من "النقود"، وهي عبارة عن قطع برونزية ودراهم فاطمية وأخرى عباسية، فالسكة الحمادية كان لها علاقة بالخلافتين الفاطمية والعباسية[3].

ومما لا شك فيه أن الحماديين إلى عهد يحي بن العزيز لم تكن لديهم نقود تحمل طابع دولتهم، حيث أن معظم المصادر التاريخية بالإضافة إلى التنقيبات الأثرية لم تطلعنا على نماذج لنقودهم، حيث أن العملات التي كانوا يتعاملون ويتبادلون بها نقود فاطمية وعباسية[4]، لكن عندما تقلد الأمير الحمادي يحي الحكم، استحدث السكة وضربها باسم الخليفة العباسي[5].

5- صناعة الزجاج:

لقد كان هذا الفن مزدهرا في قلعة بني حماد وبجاية، وهما المدينتان المرتبطتان ارتباطا وثيقا بإفريقية في كافة الميادين الفنية، وقد كانت الكؤوس والأقداح والقوارير وأوعية العطور مقولبة أو منفوخة، وفيها زخارف منقوشة ومرصعة بخيوط الزجاج ومزخرفة في أغلب الأحيان بصور

1- بن قربة، المرجع السابق، ص404.

2- نفسه، ص- ص406- 409.

3- بن قربة، **المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص504.

4- نفسه، ص505.

5- نفسه، ص507.

الحيوانات، وقد سمحت الحفريات التي أُجريت في قلعة بني حماد باكتشاف بعض القوارير وأعناق الأواني والقعور المزركشة، وأحيانا بزخارف مقولبة في شكل مجوف ولون هذا الزجاج في الغالب أبيض وأحيانا أزرق وأخضر وأحمر، وعثر على مثل هذه القطع في بجاية أيضا[1].

6- صناعة الخشب:

استعمل أمراء بني حماد المقصورة[2]، لأداء الصلاة في الجامع بمعزل عن المصلين، وقد كانت فخمة وجديدة النمط، فقد كانت تدل مقصورة المعز بن باديس على التحكم البارع في فن النقش على الخشب، وقد وجدت أيضا شبابيك مصنوعة من الخشب[3].

7- الموسيقى:

لقد سارت الموسيقى والغناء شوطا بعيدا في ظل الحماديين، "ولقد أصبح الملوك والأمراء الحماديون يعنون بالمغنيين وأرباب الفن، فيستخدمونهم بقصورهم ويجلسون إليهم"[4]، وأغلب الظن أن هذه الموسيقى متأثرة إلى حد كبير بالموسيقى الأندلسية، إذ كان الأندلسيون– هم سادة هذا الفن- في الجناح الغربي من العالم الإسلامي، وربما كانت هناك تأثيرات شرقية كذلك، ولا نظن أن الحماديين قد جاءوا فيه بجديد "وقد حذت حذو الأغنية العربية أغنية محلية شعبية تغّنى بها البدو والبربر في جبالهم عدا ما كان من الأناشيد الحماسية التي ابتكرها العرب الهلاليون"، الذين أصبحوا عنصراً ثقافيا من عناصر الثقافة الحمادية[5]، أما آلاتهم فقد تمثلت في الناي والعود

1- حمادي الساحلي، المرجع السابق، ص438.

2- ابن خلدون، العبر، ج2، ص72.

3- حمادي الساحلي، المرجع السابق، صن ص437، 438.

4- الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص212.

5- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص273.

والزرنة والزمارة والدف، فكان الأمراء والملوك يتخذون في مجالسهم المغنيين والمغنيات إلى جانب الراقصات[1].

المبحث الثالث: أثر الحضارة الحمادية

لقد كان للدولة الحمادية علاقات اقتصادية وثقافية بعديد من دول المغرب وإفريقية والمشرق، والمدن الإيطالية.

1-الأثر الفني والمعماري:

كان للفنون التي ازدهرت في عهد الدولة –خاصة الفن المعماري- تأثير كبير، والكثير من خصائص الفن المعماري لم تظهر في المغرب الإسلامي قبل ظهورها في دولة الحماديين.

ومن الحماديين تعلمت أوروبا أشياء كثيرة، فقد كان أهل بيزا الإيطاليون ينزلون مدينة بجاية، فتعلموا من مصانعها صنع الشمع، ومنها نقلوه إلى بلادهم وإلى أوروبا ولقد كانت بجاية تصدر النحل إلى إيطاليا حيث توجد مصانع الشموع، التي كانت من أبرز وسائل الإضاءة في ذلك العصر[2].

ويرى "مارسيه" في كتابه عن "الفن والزخرفة في بجاية" أن بجاية التي ورثت عن قلعة حماد صناعة مزدهرة وطورتها على امتداد تاريخها بفضل اتصال البربر بالإسبان، وكان لفنها طابعها، وأسلوبها الخاص ووحداتها الزخرفية المنفصلة، وقد صدرت منتجات بجاية خصوصا إلى مدن إيطاليا، ومن ثم فإنها تستحق عموما أن تحفظ لها مكانتها الجديرة بالاحترام في تاريخ فن الخزف الإسلامي في المغرب.

1- محمد الطمار، الروابط الثقافية . . .، ص161.

2- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص282.

وقد كانت القصور الحمادية روائع هندسية، وفنية يضرب بها المثل، وتُحتذى في كثير من البلدان، وعلى غرارها ظهرت في صقلية قصور مشابهة كقصري ريزة وكوبة الشديدي، وهي تشبه قصر اللؤلؤة والكوكب وأميمون[1].

ويؤكد أبو محمد التيجاني في رحلته وهو يصف قصور "قابس" المتشابهة الأسماء مع قصور الحماديين أن هذه القصور:" أن وافقت قابس فيها القلعة المعروفة بقلعة بني حماد واشتملت على معالم تسمى– في القلعة- بجميع ذلك"[2].

وكان روجر الثاني (1130-1154م) يرتدي الملابس العربية، ويطرز رداءه بحروف عربية وينقش على سقف كيسته نقوشا كوفية[3].

وبهذا ندرك أن الحضارة الحمادية كانت أرقى الحضارات المغربية في النصف الأول من القرن السادس، وأن النقوش الكوفية كانت الأسلوب الحمادي المستعمل في مساجد وقصور وقبور بجاية.

2-الأثر العلمي والثقافي:

يظهر أن الحماديين هم أصحاب هذا التأثير الحضاري بدرجة كبيرة، ولقد تركت الحضارة الحمادية أثارها في غير مجال[4]، وكانت القلعة ثم بجاية مرفأ آمنا يلتقي فيه الباحثون للمعرفة، وفيها لقي ابن حمديس الصقلي كل ترحيب وتكريم ومدح المنصور بن الناصر، وأخرج روائعه في وصف قصوره، ووفد أيضا ابن فكاه القيرواني إلى الناصر ومدحه في أحد قصائده.

1- رابح بونار، المرجع السابق، ص217.

2- أبو عبد الله محمد التيجاني، **رحلة التيجاني**، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، 1958م، ص115.

3- علي حسني الخربوطلي، **الإسلام في حوض البحر الأبيض المتوسط**، دار العلم للملايين، بيروت، د ت، ص128.

4- عثمان الكعاك، محاضرات في مراكز الثقافة . . .، ص129.

ووفد الشاعر أبو محمد عبد الله بن خليفة القرطبي إلى القلعة ومدح بلكين بن حماد[1]، ووفد أبو الحسن علي بن محمد الأشوني الأندسي المتوفي سنة 537هـ إلى المغرب الأوسط، ووفد كثيرون غير هؤلاء[2] في شتى المجالات بلغو حدا من الكثرة استسقى منه ابن خلدون حكمه على أدب المغاربة بأنه أدب طارئ[3]، وهو حكم يتجاهل الأدباء المغاربة الأصليين النازحين ويتجاهل معطيات الحماديين، ودول مغربية أخرى كثيرة، ويتجاهل طبيعة العصر في النقلة والارتحال.

والواضح أن الموحدين قد ورثوا الدولة الحمادية، وهي في أوج تألقها الحضاري، ومن السهل على المرء الاقتناع بأن العلماء والمفكرين الذين ظهروا على امتداد القرن السادس الهجري في المغرب الأوسط كانوا تلامذة للحضارة الحمادية.

وقد ذهب الدكتور "عبد الله علام" إلى هذا في رسالته، فذكر أن نهضة بجاية– على عهد الموحدين -" ليست من مآثر الموحدين وحدهم، فقد كانت ذات شهرة فائقة على عهد بني حماد"[4].

وإذا كانت الأرقام العربية وعلم الجبر والمقابلة قد انتشروا[5] في إيطاليا عبر ليونارد فنشي المولود سنة 571هـ/1175م، فإن ليونارد فنشي هذا كان من تلامذة الحضارة الحمادية ببجاية[6].

وإذا كان الغبريني قد جمع في كتابه "عنوان الدراية" أكثر من مائة ترجمة لعلماء وأدباء عاشوا في بجاية في نهاية القرن السادس والقرن السابع، فليس من المبالغة القول بأن لغالب هؤلاء امتداد ثقافيا حماديا، وأنهم دليل ناصع على تلك النهضة العلمية التي رعاها الحماديون في بجاية.

1- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص128.

2- الفتح ابن خاقان، **قلائد العقيان**، تقديم محمد العناني، المكتبة العتيقة، تونس، 1968م، ص287.

3- ابن خلدون، العبر، ج3، ص988.

4- عبد الله علي علام، **الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي**، طبع دار المعارف، مصر، 1971م، ص286.

5- كان أول من أدخلها إلى أوروبا البابا سليفسترا (تعلمها بفاس). عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص384.

6- الهيلالي الميلي، المرجع السابق، ص226. وأيضا: عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص384.

ووفقا للسياسة الواضحة المعالم، التي كانت تقوم على التسامح بين كل الملل والبحث عن الصلح وتشجيعه من أي طائفة، واستيعاب العناصر الطارئة تحت أي ضغط، وتحويل بجاية إلى مكة صغيرة يحج إليها كل الباحثين عن الحياة والمجد، في ظل هذه السياسة قدّم الحماديون الكثير للحضارة العربية والإسلامية، والتي اعتبرت من أكبر مآثر الحماديين ، والتي اقتبسها الموحدون على نحو أقوى، وبه حمى الحمّاديون الحضارة العربية من الدمار الكامل، وكانوا الوريث لحضارة القيروان التي فرض عليها الدمار والتشتت، وكان في الإمكان أن يلقى المغرب الأوسط ثم المغرب كله المصير نفسه[1]

1- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص285.

خاتمة

خاتمة:

ومهما يكن من أمر، وبعد اطلاعنا على ما تّيسر من المصادر والمراجع التي اهتمت بدولة بني حماد من الناحية الثقافية خلصنا إلى جملة من النتائج نوجزها على النحو التالي:

من الطبيعي أن تتباين أحوال الأمم بين القوة والضعف ومن الطبيعي كذلك أن تخطئ الأمم وتصيب عبر تاريخها، سواء في سياستها الداخلية أو الخارجية.

وهكذا كانت دولة بني حماد في التاريخ... تبنيت قوة وضعفا، بَيْدَ أن الحقيقة تتجلى لنا في النظرة الشاملة وهي أن دولة الحّماديين كانت صفحة من ألمع صفحات الحضارة بالمغرب الأوسط فهذه الدولة تمكنت من أن تأخذ مكانة كبيرة، حيث أصبحت تضاهي أكبر عواصم الفكر والثقافة مشرقا ومغربا بحيث أصبحت مركزا علميا هاما أنذاك، وهذا راجع للسياسة الواضحة المعتمدة من طرف الحماديين، والتي كانت تقوم على التسامح بين كل الملل.

هذا وكان لاهتمام أمراء الدولة الحمادية بالعلم والعلماء وإعطائهم المكانة السامية التي يستحقها، وحرصهم على جلب العلماء إلى بلادهم والاعتناء بشؤون حياتهم، وتوفير سبل الراحة والأمن لهم، فكانوا يستشيرونهم ويسّندون لهم المهام والمناصب الهامة مثل القضاء والفتوى، وهذا كله راجع إلى ما امتاز به علماء هذه الفترة من الصلاح والعلم والقدرة على القيام بالمهمات على أحسن وجه.

والازدهار العلمي الذي عرفه المغرب الأوسط خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين ارتبط كذلك بالحركة التعليمية التي ازدهرت بفضل توفر مراكز التعليم المختلفة كالمساجد والزوايا والكتاتيب، بل وتجاوز هذا إلى درجة أن بعض العلماء جعلوا من منازلهم أماكن للتعليم.

إضافة إلى أن النشاط الذي عرفته الحركة العلمية خلال هذه الفترة بالمغرب الأوسط لم تكن وليدة هذه الفترة، وإنما ظهرت في زمن الفاطميين والمرابطين واستمرت خلال العهد الحّمادي، فظهر الكثير من العلماء الذين خدموا العلوم، فكان إنتاجها وفيرا مقارنة بالقرون السابقة.

وإذا كان الغبريني قد جمع في كتابه "عنوان الدراية" أكثر من مائة ترجمة لعلماء وأدباء عاشوا في بجاية في نهاية القرن السادس والقرن السابع الهجريين، فليس من المبالغة القول بأن لغالب هؤلاء امتدادا ثقافيا وحمّاديا، وأنهم دليل ناصع على تلك النهضة العلمية التي رعاها الحماديون في بجاية.

ولقد شهد ميدان العلوم بالمغرب الأوسط خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين تطورا وازدهارا، وصل إلى قمته بمختلف أنواعها دينية، لغوية، اجتماعية، وعقلية، إلاّ أننا لاحظنا تفاوتا من حيث الاهتمام بالعلوم، فقد أعطيت الأولوية للعلوم الدينية التي ارتبطت كل الارتباط بالمذهب المالكي، الذي تمكن من الانتشار ببلاد المغرب الأوسط بفضل المجهودات الكبيرة التي قام بها الفقهاء المالكيون.

ولقد صاحب تمركز العلماء الوافدين من خارج المغرب الأوسط بما فيها إفريقية والأندلس وغيرهما وكذلك في العاصمتين القلعة- كعاصمة أولى-، وبجاية- كعاصمة ثانية -على وجه الخصوص، تنوع ثقافي وحضاري، والذي ظهر جليا في مبانيهم العمرانية من مساجد وقصور وأسوار وأبراج، وما قاموا به من إبداع في شتى الفنون، وهذا كله راجع إلى براعة ودهاء الفنان الحمادي، وحسن استغلاله لجميع المواد المتوفرة أمامه، وهذا كله أدركناه من خلال الآثار والتحف والنماذج المتنوعة التي تم العثور عليها.

وأخيرا نقول بأن الدولة الحمادية أدت دورها على امتداد قرن ونصف القرن، وهي بظهورها هذا شاهد قوي على رقي الحضارة الإسلامية بالمغرب الأوسط خاصة والمغرب الإسلامي عامة.

ولعل أبرز نتيجة خلصت إليها الدراسة هي اكتشاف النقص في الدراسات التي تعتني بالجانب الثقافي في المغرب الأوسط وعلى رأسها الدولة الحمادية.

المـلاحق

الملحق رقم 01: جدول الأسرة الحمّادية الحاكمة بالمغرب الأوسط[1]

405 – 547 هـ		1014 م – 1152 م
405 هـ	حماد بن بلكين	1014 م
419 هـ	القائد بن حماد	1028 م
446 هـ	محسن بن القائد	1054 م
447 هـ	بلكين بن محمد	1055 م
454 هـ	الناصر بن علناس	1062 م
481 هـ	المنصور بن الناصر	1088 م
498 هـ	باديس بن المنصور	1104 م
498 هـ	العزيز بن المنصور	1105 م
547 هـ	يحي بن العزيز	1152 م

1- أحمد سعيد سليمان، **تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة**، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1389هـ/1969م، ص48.

الملحق رقم 02: خريطة بلاد المغرب في منتصف القرن الخامس والسادس للهجري/ الحادي عشر الميلادي[1]

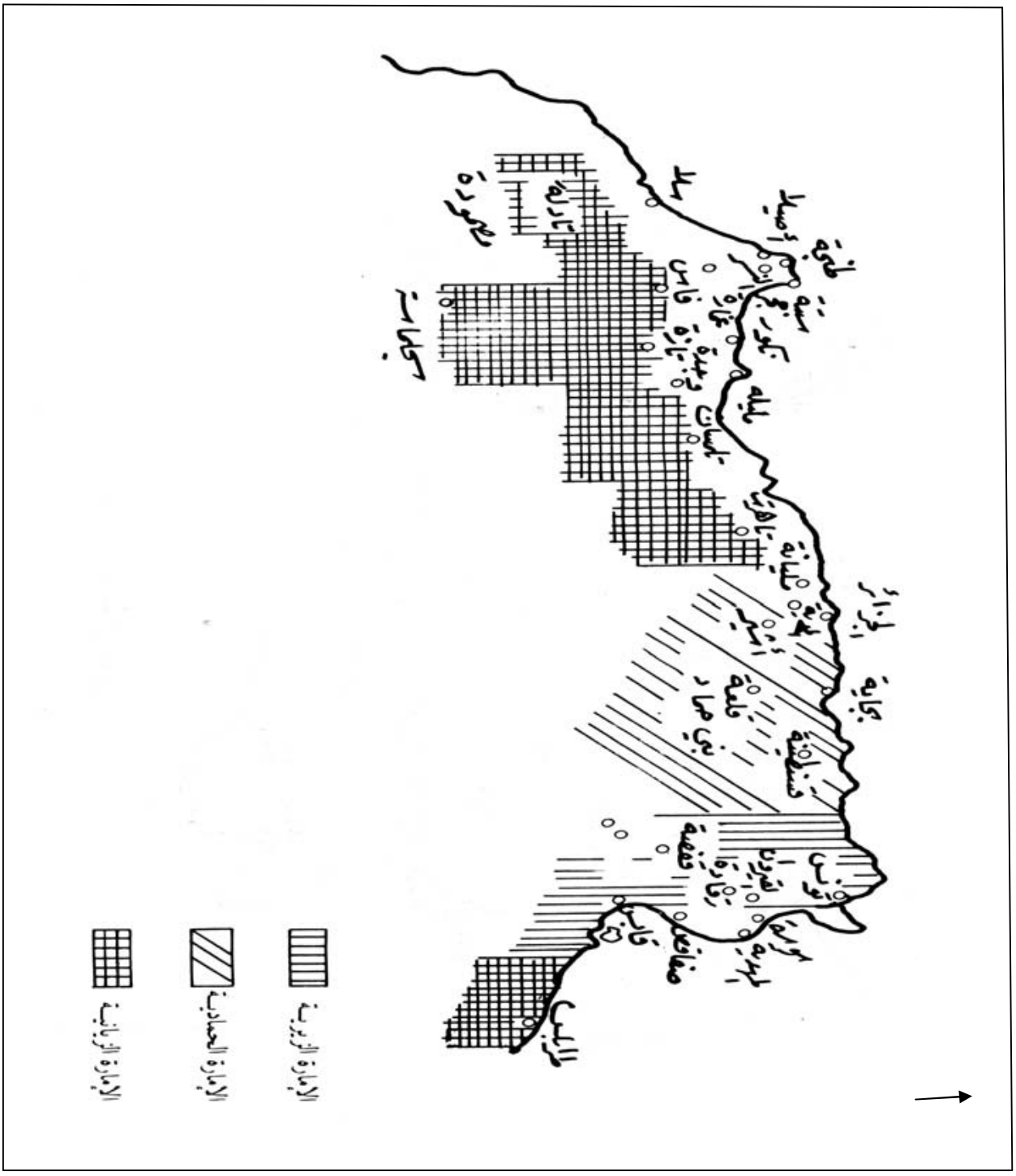

1- موسى هيصام، **الجيش في العهد الحمادي (405-541هـ/1014-1152م)**، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2001م، ص161.

الملحق رقم 03: خريطة تبين موقع مدينة المسيلة[1]

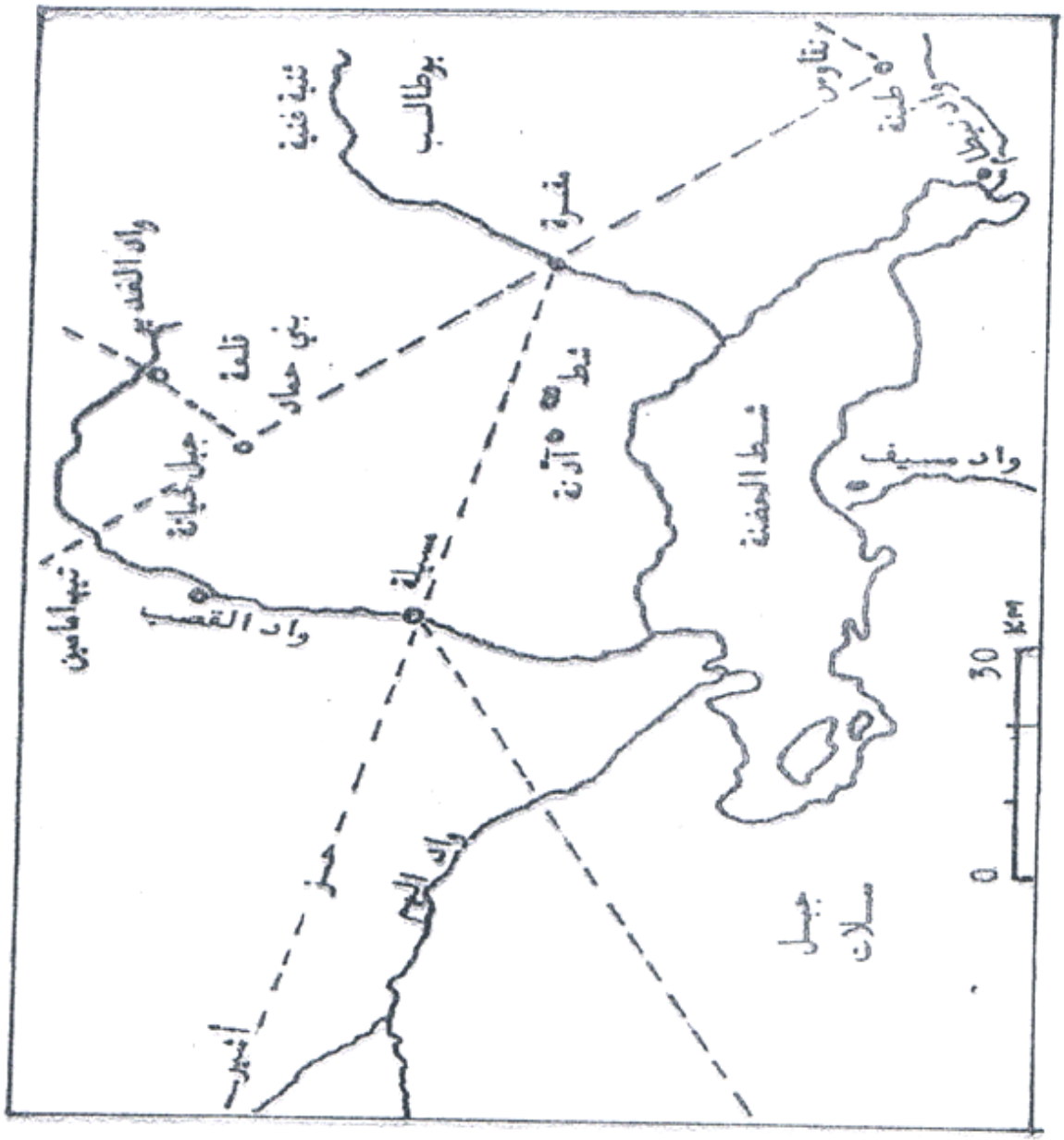

1- بن قربة، تاريخ مدينتي المسيلة وقلعة بني حماد. . .، ص48.

الملحق رقم 04: موقع القلعة بالنسبة لجبل "تاقربست" الذي حصنها طبيعيا (شمالا)[1]

1- موسى هيصام، المرجع السابق، ص168.

الملحق رقم 05: موقع "وادي فرج" العميق الذي يحصن القلعة (من الناحية الشرقية) يرى من قصر المنار[1]

1- موسى هيصام، المرجع السابق، ص168.

الملحق رقم 06: خريطة توضح سور القلعة التحصيني وأبوابه الرئيسية[1]

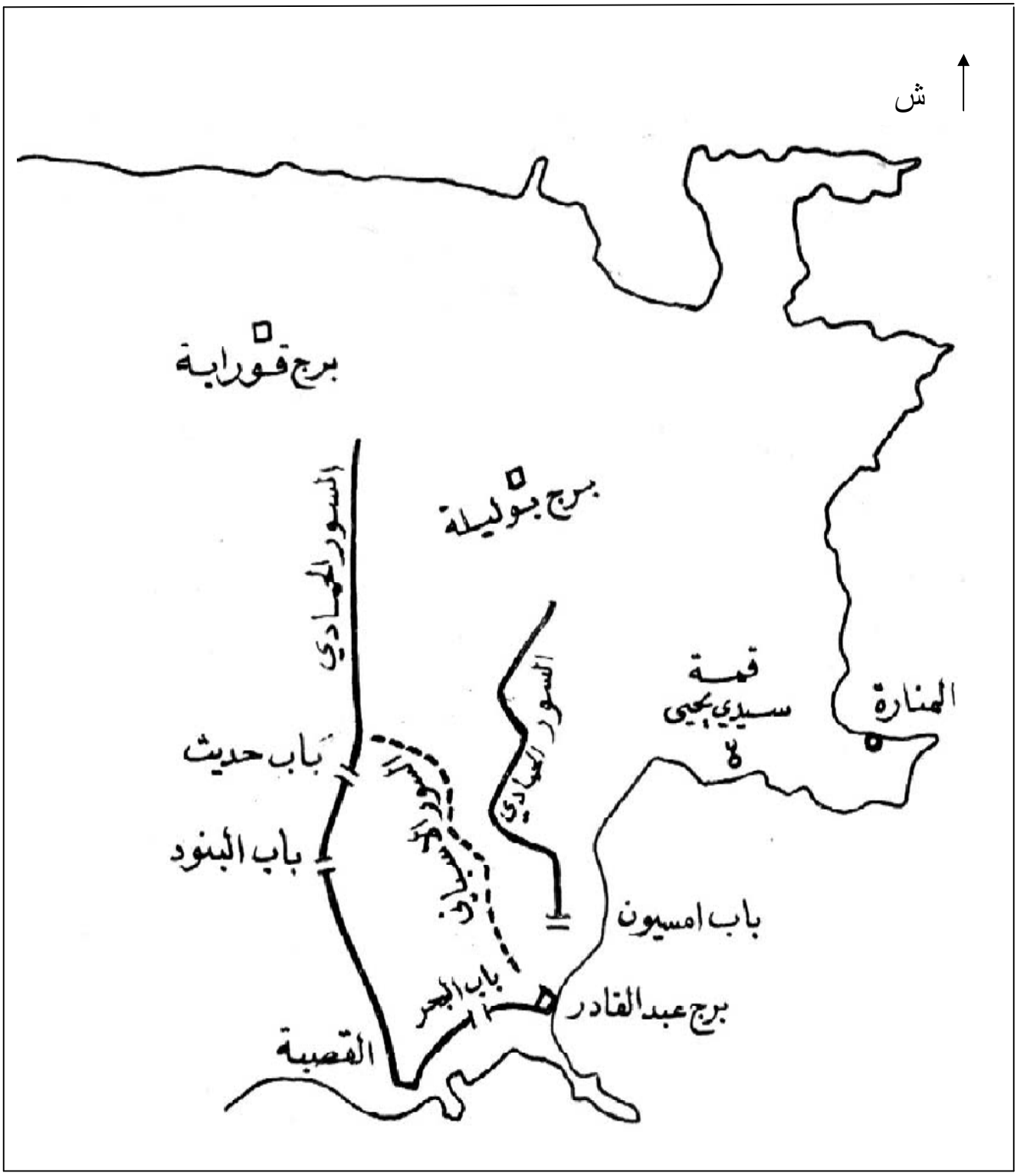

1- رشيد بورويبة، الدولة الحمّادية. . .، ص142.

الملحق رقم 07: خريطة قلعة بني حماد توضح مواقع القصور الحمّادية[1]

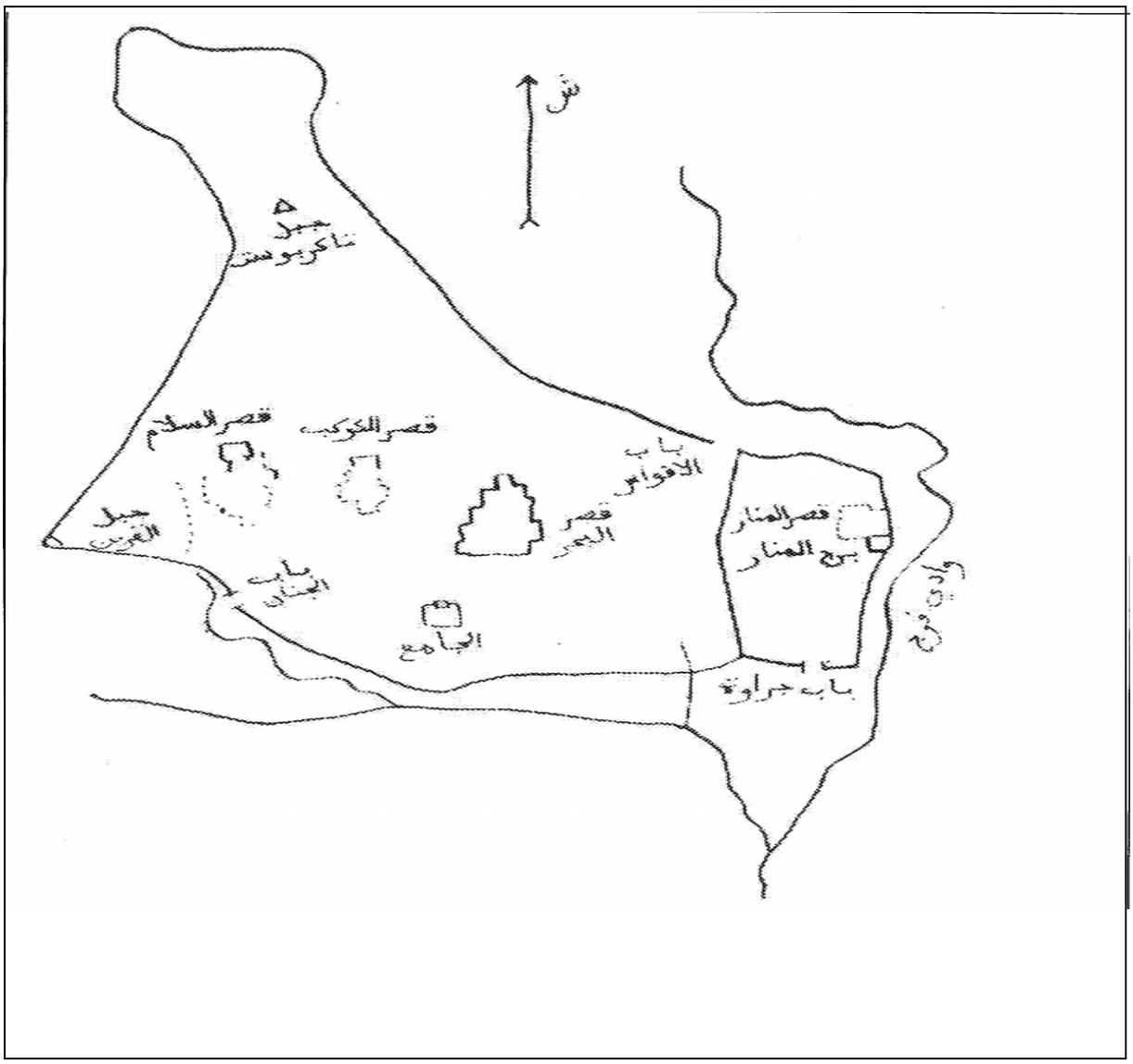

1- صالح يوسف بن قربة، تاريخ مدينتي المسيلة وقلعة بني حماد . . .، ص140.

البيبليوغرافيا

قائمة المصادر والمراجع:

1/ المصادر:

1- ابن الآبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القُضاعي(ت 658هـ/ 1260م): الحلة السيراء، ج1، تح: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، تونس، 1968م.

2- الإدريسي، أبو عبد الله محمد الشريف(ت548هـ/ 1154م): صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تح وطبع ليدن، 1866م.

3- ابن الإكفاني، محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري(749هـ/1348م): إرشاد القاصد عن أسني، المقاصد في أنواع العلوم، تح: عبد المنعم ومحمد عمر، مراجعة: أحمد حلمي عبد الرحمن، الفكر العربي، القاهرة، د ت.

4- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي(ت.ق8هـ/14م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تصحيح وطبع كارل يوحن يورنبرغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسالة، 1963م.

5- الأصفهاني، عماد الدين محمد (ت597هـ/1200م): خريدة القصر وجريدة العصر(قسم شعراء المغرب)، ج1، تح: محمد المرزوقي ومحمد العروسي والجيلالي وابن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر،1966م.

6-ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي كرم(ت628هـ/1230م): الكامل في التاريخ ج8-9-10-11، المنيرية، مصر، 1953م.

7-البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز(ت487هـ/1094م): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من كاتب المسالك والممالك)، تح: de slane، الجزائر، 1912م.

8-ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، مج1، لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، 1938م.

9- الجوذري، أبو علي منصور العريزي(ت483هـ/1091م): سيرة الأستاذ جوذر، تح: كامل حسين وعبد الهادي شعيرة، سلسلة مخطوطات الفاطميين، القاهرة، 1954م.

10- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت914هـ/1511م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، ج7-8-11، إشراف الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.

11- الداعي، إدرسي القرشي: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار) ط1، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.

12- ابن الزيات، التادلي ابو اليعقوب يوسف بن يحي(ت 617هـ): التشوق إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1984م.

13- الزركلي، خير الدين: الأعلام، ج2، دار العلم للملايين، بيروت، 1986.

14- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي(بعد 367هـ/977م): صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دت.

15- ابن حوقل: المسالك والممالك، مطبعة بريل، 1872م.

16- ابن حزم، أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي(ت 465هـ/ 1064م): جمهرة أنساب العرب، ج6، تح: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، 1962م.

17- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت(ت626هـ/1228م): معجم البلدان، ج1-2-3-4-5، تح: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.

18- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم(ت866هـ/1381م): الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تح: إحسان عباس، مطابع هيدلبرغ، بيروت، 1984م.

19- الحفناوي، أبو القاسم محمد بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي بن إبراهيم المغول: تعريف الخلف برجال السلف، ج1، تح: محمد أبو الأجفان وعثمان بطيح، المكتبة العتيق، تونس، 1982م .

20- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت284هـ/897م) وصف إفريقية الشمالية (مأخوذ من كتاب البلدان)، اعتناء ونشر: هنري بريس، الجزائر، 1380هـ.

21- الكتاني، عبد الحق الفاسي: التراتيب الإدارية أو كتاب نظام الحكومة النّبوية، ج2، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت.

22- الكتاني، يوسف: مدرسة الإمام البخاري، دار لسان العرب، بيروت، د ت.

23- المراكشي، عبد الواحد بن علي(ت669هـ): المعجب في تلخيص أخبار المغرب تح: سعيد العريان، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1963م.

24- مؤلف مجهول(من ق 26هـ/12م): الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندارية، 1958م.

25- ابن منظور، محمد بن مكرم علي الأنصاري(ت711هـ/1311م): لسان العرب، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 2000م

26- المقري، الإمام شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني(ت1041هـ/1613م): أزهار الرياض في أخبار عياض، ج3، ضبطه وحققه وعلق عليه: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة، التأليف والنشر، القاهرة، 1939م.

27- المقري: نفح الطيب بن غصن الأندلس الرطيب، تح، إحسان، ج5، دار صادر بيروت، 1988م.

28- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن محمد(ت845هـ/1442م): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج1، تح: جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1996م.

29- ابن مريم، أبو عبد الله محمد بن محمد(كان حيا سنة 1014هـ/1605م): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشره محمد بن أبي شنب وقدم له عبد الرحمان طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م.

30- ابن نبيه، محمد محمود عبد الله: الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، ط2، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 2000م .

31- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت732هـ/1332م): نهاية الأرب في فنون الأدب، ط1، تح: عبد المجيد ترجيني، منشورات كلية الكتب العلمية، بيروت، د ت.

32- ابن سحنون، محمد: كتاب آداب المعلمين، ط2، تح: محمد عبد المولى، ش و ن ت، الجزائر1981م.

33- ابن سعيد، علي بن موسى المغربي(ت732هـ/1332م): المغرب في حلى المغرب، ج1، طبع دار المعارف، مصر، 1953م.

34- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(ت902هـ/1497م): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دراسة وتح: عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة،1989م.

35- ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تح: ليفي بروفنسال وج.س كولان، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1983م.

36- الصنهاجي، أبو عبد الله محمد: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح: جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

37- الفتح ابن خاقان: قلائد العقيان، تقديم: محمد العناني، المكتبة العتيقة، تونس، 1986م.

38- صفي الدين، بن عبد الحق: مراصد الإطلاع، ج3، تح: محمد أبو النجار، القاهرة، 1954م.

39- القاضي النعمان، أبو حنيفة بن محمد بن حيون التميمي المغربي(ت363هـ/974م): إفتتاح الدعوة، تح: فرحات الرشاوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د ت.

40- القاضي عياض، أبو الفضل موسى اليحصبي السبتي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج4، تح: أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت د ت.

41- القلصادي، علي بن محمد القرشي الأندلسي(ت891هـ/1486م): رحلة القلصادي المسماة تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب، دراسة وتح: محمد أبو الجفان ، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م.

42- ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن حسين علي بن الخطيب القسنطيني(ت810هـ/1408م)، شرف الطالب في أنس المطالب، تح: محمد حجي، ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات، مطبعة دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976م.

43- عبد الله أبو الروح، طبقات الشافية، ج1، تح: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987م.

44- الشهرستاني، أبو الفتح عبد الكريم(ت548هـ/1153م): الملل والنحل، ج1، تح: محمد السيد الكيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.

45- ابن تومرت جمال الدين محمد: كنز العلوم والدر المنظوم في حقائق علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة، تقديم وتح: أحمد عبد الجبار البحيري، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1999م.

46- التوقاني، لطف الله بن الحسن: رسالة في العلوم الشرعية والعربية، تقديم وطبع وتعليق: رفيق العجم، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994م.

47- التيجاني، أبو عبد الله محمد(ت717هـ/1317م): رحلة التيجاني، تقديم: حسن حسيني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، 1958م.

48- التميمي، عبد الله محمد بن عبد الكريم: المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس ومايليها من البلاد، تح: محمد الشريف، تطوان، 2000م .

49- التنبكتي، أحمد بابا(1036هـ/1672): نيل الابتهاج في تطريز الديباج دار الكتب العلمية، بيروت، د ت.

50- ابن الخطيب، لسان الدين السليماني(ت776هـ/1374م): تاريخ العرب في العصر الوسيط (الجزء الثالث من كتاب أعمال الأعلام)، تح: العبادي وإبراهيم الكتاني، طبع دار الكتب، الدار البيضاء، 1964م.

51- ابن الخطيب مرزوق(781هـ/1379م): المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تح: ماريا خيسون بغيرا، ش و ن ت، الجزائر، 1981م.

52- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(808هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج2-3-6-7، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967م.

53- ابن خلدون: المقدمة، تح: علي عبد الواحد وافي،د ت.

54- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين(ت681هـ/1283م): وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، ج1-3، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1978م.

55- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبّيد الله بن عبد الله(ت حوالي272هـ/885م): المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، 1989م.

56- طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ج2، تح: كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1968م.

57- الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله(ت644هـ/714م): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: رابح بونار، ش و ن ت، الجزائر، 1970م.

2/ المراجع:

1- بونابي الطاهر: التصوف في الجزائر خلال القرنيين 6هـ-7هـ/12و13م، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.

2- بونار رابح: المغرب العربي تاريخه وثقافته، ط1، ش و ن ت، الجزائر، 1981م.

3- بورويبة رشيد: الجزائر في تاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، ج3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

4-بورويبة، الدولة الحمادية: تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010م.

5-بوعزيز يحي: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، ط1، دار المغرب، الإسلامي بيروت،1995.

6- بروفنسال ليفي: الإسلام في المغرب والأندلس، تح: عبد العزيز سالم، مكتبة النهضة المصرية، سلسلة ألف كتاب ،1956م.

7-بروفنسال: سلسلة محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها، تر: محمد الهادي شعيرة، القاهرة، 1956م.

8- برنشفيك روبار: تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى القرن 15، مج1، تر: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

9- جودت عبد الكريم يوسف: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1992م.

10- الجيلالي عبد الرحمان: تاريخ الجزائر العام، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م.

11- جغلول عبد القادر: مقدمات في تاريخ المغرب العربي، تر: فضيلة الحكيم، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر، سوريا، 1982م.

12- داود بن يوسف سليمان: حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، مطبعة أبو داود، الجزائر، 1983م.

13- ديوان ابن حمديس الصقلي، تح، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1960م.

14- الدشراوي فرحات: الخلافة الفاطمية في المغرب (290- 365هـ/909-975م): التاريخ السياسي والمؤسسات، تر: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1994م.

15- الهلالي الميلي مبارك: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، مكتبة النهضة، الجزائر، 1963م.

16- الزحيلي وهبة ، أصول الفقه الإسلامي، ج1، ط1، دار الفكر، دمشق، 1986م.

17- حاجيات عبد الحميد وآخرون، الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، ج3، وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

18- الحنبلي، ابن عماد: صحيح الطب النبوي، راجعة وقدم له أحمد عبد الغني الجمل، دار ابن حزم، 2004م.

19- حاطوم نو الدين وآخرون: مدخل إلى التاريخ في التنازع والمؤرخين منذ القديم حتى اليوم، مطبعة الإنشاد، دمشق، 1965م.

20- حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، 1957م.

21- حسن كامل محمد: في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1970م.

20- حسن عاصي: تاريخ العلوم عند العرب، ط1، دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع، 1991م.

22- حركات إبراهيم: مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م، ج1، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000م.

23- الكعاك عثمان: محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب العربي، طبع معهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية، 1967م.

24- الكعاك: موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، مراجعة: أبو القاسم سعد الله وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د ت.

25- الكعاك: بلاغة العرب في الجزائر، نشر مكتبة العرب، تونس، د ت.

26- مارسيه جورج: بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ت، عبد الصمد، هيئة منشأة المعارف للنشر والتوزيع، الإسكندرية 1991م.

27- مؤنس حسين: تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر من القرن 6م إلى القرن 19م، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، 1992م.

28- المدني أحمد توفيق: كتاب الجزائر، ط2، طبع دار المعارف، الجزائر، 1963م.

29- مرزوق محمد عبد العزيز: الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، لبنان، دت.

30- الملا أحمد علي: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، ط1، دار الفكر، دمشق 1981م.

31- محاسنة محمد حسين: أضواء في تاريخ العلوم عند المسلمين، ط1، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات العربية المتحدة، 2001م.

32- المراكشي عباس بن إبراهيم: الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج2، ط1، المطبعة الجديدة، فاس، 1936م.

33- مرمول محمد الصالح: السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

34- مرسي محمد منير: التربية الإسلامية، أصولها وتطورها في البلاد العربية، نشر عالم الكتب، القاهرة، 1983م.

35-المختار، محمد ولد أباه: تاريخ القراءات في المشرق والمغرب، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، 1422هـ/2001م.

36- نسيب محمد: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، الجزائر، د ت.

37- الساحلي حمادي: الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن12) ج2،، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دت.

38- سليمان أحمد سعيد: تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسرة الحاكمة، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1969م.

39- سرور محمد جمال الدين: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، القاهرة، 1957م.

40- سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج3، منشأة المعارف، الإسكندرية 1990م.

41- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجري (16-20م)، ج1، ش و ن ت، الجزائر، 1981م.

42- عارف تامر: تاريخ الإسماعيلية من المغرب إلى المشرق، ج2، ط1، لندن، نوفمبر1991م.

43-عبد العزيز محمد عادل: التربية الإسلامية في المغرب، أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م.

44- عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، دار الكتاب العربي، للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1967م.

45- العدوي إبراهيم أحمد: بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970م.

46- عويس عبد الحليم: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، د ت.

47- علام علي عبد الله: الدولة الموحدية في المغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، طبع دار المعارف، مصر، 1971م.

48- العربي إسماعيل: دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، ش ن و ت، الجزائر، 1980م.

49- فليب حتى: تاريخ العرب (مطول)، ج2، دار الكشاف، بيروت، 1951م.

50- الصعيدي عبد الحكم عبد اللطيف: الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب ، 1996م.

51- بن قربة صالح يوسف: تاريخ مدينتي المسيلة وقلعة بني حماد في العصر الاسلامي، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م.

52- بن قربة: المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986م.

53- أبو الرزاق أحمد بن محمد: الأدب في عصر دولة بني حماد، ش و ن ت،الجزائر،1979م.

54- الركابي جودت: في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، 1996م.

55- شلبي أحمد: تاريخ التربية الإسلامية ط5، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1980م.

56- تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ط2، ش و ن ت، الجزائر، 1981م.

57- خلفات مفتاح: قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط، ط1، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، 2011م.

58- الخربوطلي علي حسني: الإسلام في ضوء البحر الأبيض المتوسط، دار العلم للملايين، بيروت، د ت.

59- بن ذيب عيسى وآخرون: الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث، الجزائر، 2007م.

60- الطمار محمد: المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010م.

61-الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، ش.و. ن. ت، الجزائر، 1983م.

62- الغنيمي عبد الفتاح مقلد: موسوعة تاريخ المغرب العربي، ج2، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994م.

63- عبد الغني عبد الله يسرى: معجم المؤرخين المسلمين في القرن الثاني عشرة الهجري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م.

3/ الأطروحات:

1- بوشامة عاشور: علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس (626-981هـ/ 1128-1573م)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة القاهرة 1991م.

2- بوشقيق محمد: تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال قرنين 8-9 هـ/ 14-15م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان، 2011م.

3- هيصام موسى: الجيش في العهد الحمادي (405-547هـ/1014-1152م)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2001م.

4- بن النيه رضا: صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر(80هـ-699م/392هـ-973م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، قسنطبنة، 2006م.

5- الشريف سيدي موسى محمد: الحياة الفكرية في بجاية ما بين القرنين 7-10 هـ/ 13-16م، أطروحة لنيل شهادة الماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 2002م.

4/ المجلات والمقالات:

1- باشا حسن: الفن عند الشعوب الإسلامية، مجلة لدار (عدد خاص تذكاري)، ع 43، 1976م.

2-بجاية (كتالوج) إشراف، بورويبة، سلسلة الفن والثقافة، نشر وزارة الأخبار الجزائرية.

3- بونابي الطاهر: الدولة المركزية بقلعة بني حماد التأسيس والتداعيات، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، ع 7 ،الجزائر، 2006م.

4- بوعزيز يحيى: أعلام الفكر والثقافة في رقعة الدولة الحمادية، الملتقى الدولي الأول حول آثار قلعة بني حماد- المسيلة، 23-25 سيبتمبر، 1987م.

5- وسيلة بلعيد بن حمدة: الزاوية ودورها التربوي والاجتماعي، الهداية، ع الرابع،1995م.

6- حماني أحمد: عباقرة من رجالنا، الأصالة، الرباط، 1994م.

7-مولود قاسم نايت بلقاسم: المسجد جامع وجامعة،مجلة الاصالة، ع 47/46، الجزائر، 1977م.

8-عبد المجيد مزيان: الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار، مجلة الثقافة، السنة الخامسة عشر، وزارة الثقافة والسياحة، ع 90، الجزائر،1985م.

9- العربي إسماعيل: ابن حمديس الصقلي شاعر بني حماد، الأصالة، ع خاص ببجاية عبر العصور، 1982م.

10- قويسم محمد:علماء الرياضيات في مدينة قلعة بني حماد، الملتقى الدولي، مدينة قلعة بني حماد 1000 سنة من التأسيس، قسم التاريخ، جامعة بوضياف، المسيلة، الجزائر، 9-10-11 أبريل 2007.

الفهارس

فهرس الأعلام:

الإدريسي، ص: 12، 30، 36، 64، 65، 66، 103، 114، 115 .

بلكين، ص: 22، 24، 25، 26، 28، 40، 85، 95، 103، 107، 120.

زيري بن مناد، ص:21، 22، 23، 25، 26، 107.

حماد بن بلكين، ص:24، 26، 27، 28، 31، 34، 40، 41، 42، 54، 63، 64، 67، 68، 96، 71، 84، 86، 87، 93، 95، 97، 98، 100، 101، 103، 106، 107، 11، 114، 115، 116، 117، 120،119،118.

يحيى بن العزيز، ص:31، 42، 89، 116.

أبو عبد الله الشيعي، ص:12، 15، 16، 17.

المنصور بن الناصر، ص: 27، 30، 35، 41، 82، 85، 95، 99، 100، 102، 103، 107، 115، 119.

الناصر بن علناس، ص:29، 30، 31، 35، 40، 41، 65، 66، 85، 92، 95، 98، 99، 100، 106، 115، 119.

عبيد الله المهدي، ص: 16، 17، 18، 19، 20.

العزيز بن المنصور، ص:30، 31، 89.

الغبريني، ص: 26، 74، 78، 83، 90، 120.

ابن الخطيب، ص: 30، 33، 41.

ابن خلدون، ص:15، 24، 25، 27، 30، 44، 47، 48، 56، 62، 65، 92، 93، 96، 99، 120.

فهرس البلدان:

الأندلس، ص:26، 33، 37، 40، 43، 46، 59، 68، 69، 76، 81، 82، 85، 89، 93، 106، 108، 111، 112، 115.

إفريقية، ص: 22، 29، 31، 46، 50، 65، 75، 79، 82، 96، 112، 116.

أشير، ص: 22، 23، 24، 28، 62، 63، 64، 69، 79، 89، 105.

بجاية، ص: 29، 30، 31، 34، 35، 36، 37، 38، 40، 41، 42، 44، 47، 50، 54، 62، 66، 67، 68، 70، 71، 72، 78، 82، 83، 87، 92، 93، 98، 102، 103، 107، 111، 114، 115، 116، 117، 118، 120، 121.

الزاب، ص: 18، 23، 35، 64.

حمزة، ص: 22، 23، 27، 63، 64.

طبنة، ص: 22، 23.

كيانة، ص: 27، 40، 64.

المهدية، ص:18، 20، 31، 40، 111.

المسيلة، ص: 22، 23، 27، 40، 59، 62، 63، 64، 69، 79، 105.

مصر، ص: 11، 12، 13، 14، 20، 36، 46، 68، 76، 81، 115، 121.

المغرب، ص:12، 15، 17، 21، 23، 25، 27، 37، 40، 45، 50، 56، 57، 58، 59، 64، 65، 68، 76، 78، 82، 92، 118، 121.

المغرب الأوسط، ص: 11، 21، 28، 31، 32، 33، 35، 36، 43، 44، 46، 47، 50، 54، 57، 58، 67، 76، 78، 79، 85، 86، 96، 107، 108، 112، 114، 120.

المغرب الأقصى، ص: 19، 33، 66، 66، 82، 93، 113..

سبيبة، ص:29، 30.

سجلماسة، ص: 33، 69.

سلمية، ص:15، 17.

القاهرة، ص: 12، 84، 96.

القيروان، ص:13، 16، 20، 40، 41، 75، 76، 79، 85، 96، 109، 111.

القلعة، ص: 26، 27، 28، 29، 30، 31، 35، 36، 41، 42، 44، 54، 62، 63، 64، 65، 67، 69، 71، 75، 84، 85، 86، 87، 93، 95، 96، 98، 100، 101، 103، 104، 107، 111، 114، 115، 117، 118، 119.

قسنطينة، ص: 11، 28، 114.

تاهرت، ص: 12، 32، 40.

تاقربست، ص: 63، 106.

تلمسان، ص: 32، 40، 46، 50، 111.

فهرس القبائل:

جراوة، ص: 27، 63، 64، 95، 104.

بني هلال، ص: 27، 29، 30، 34، 36، 37، 64.

زواوة، ص: 11، 37.

زناتة، ص: 21، 23، 24، 28.

بني يفرن، ص: 18.

كتامة، ص: 11، 12، 13، 14، 16، 37، 115.

مغيلة، ص: 21.

صنهاجة، ص: 21، 22، 23، 24، 25، 26، 29،65، 93، 98.

بني توجين، ص: 36.

فهرس الموضوعات:

شكر وعرفان

إهداء

مقدمة .....أ

الفصل الأول

مدخل إلى قيام الدولة الحمادية

المبحث الأول: التاريخ السياسي للمغرب الأوسط في العهدين الفاطمي والصنهاجي. 12

1-التاريخ السياسي للمغرب الأوسط في العهد الفاطمي (منذ القيام إلى الإنتقال إلى مصر)..12

أ-قيام الدولة الفاطمية 12

-كتامة 12

ب-مراحلها 14

-مرحلة نشر الدعوة 14

-مرحلة تكوين الدولة 16

عبيد الله المهدي 16

القائم بأمر الله 17

إسماعيل المنصور 18

المعز لدين الله 20

2-التاريخ السياسي للمغرب الأوسط في العهد الصنهاجي 21
أ-العهد الزيري 21
-زيري بن مناد 21
-مدينة أشير 22
ب-العهد الحمادي 24
-أصل الحماديين 24
-مراحل تطور الدولة الحمادية 26
-الفترة الأولى (405-443هـ/1014-1051م) 26
القلعة (عاصمة بني حماد الأولى) 27
-الفترة الثانية (443-481هـ/1051-1089م) 28
بجاية (عاصمة بني حماد الثانية) 29
-الفترة الثالثة (481-547هـ/1089-1152م) 31
المبحث الثاني: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الأوسط خلال العهد الصنهاجي.. . .31
1-التاريخ الاقتصادي 31
أ-الزراعة 31
ب-الصناعة 32
ج-التجارة 33

2-التاريخ الاجتماعي 34

المبحث الثالث: المؤثرات في الحياة الثقافية للمغرب الأوسط خلال العهد الحمادي. 35

1-العامل السياسي 35

-الاستقرار السياسي 35

2-العامل الاقتصادي 36

-الرخاء الاقتصادي 36

3-العامل الاجتماعي 37

-الهجرة والتسامح 37

الفصل الثاني:

التعليم ومؤسساته

المبحث الأول: دور الحكام في تنشيط الحياة الثقافية 40

المبحث الثاني: التعليم 43

1-نظام التعليم 44

-مراحل التعليم 44

2-طرق التدريس 46

أ-طريقة التدريس بالرواية 46

ب-طريقة التدريس بالدراية 46

3-الرحلة 47

-فوائد وأهداف الرحلة 49
4-الإجازة العلمية 51
إجازة السماع 52
إجازة المكاتبة 52
المبحث الثالث: المؤسسات التعليمية 53
1-المساجد 53
2-الكتاتيب 55
3-الزوايا. 58
4-المكتبات 59

الفصل الثالث

الإنتاج العلمي والثقافي

المبحث الأول: المراكز الثقافية 63
1-القلعة 63
2-بجاية 66
المبحث الثاني: العلوم النقلية واللسانية 67
1-العلوم النقلية 67
أ-الفقه 67
ب-التفسير 72

ج-علم القراءات 73
د-علم الحديث 74
هـ-التصوف 75
2-العلوم اللسانية 76
أ-النحو واللغة 77
ب-الأدب 79
ج-الشعر 80
المبحث الثالث: العلوم العقلية والاجتماعية 86
1-العلوم العقلية 86
أ-الرياضيات والفرائض 86
ب-الطب والصيدلة 88
ج-الفلك 91
2-العلوم الاجتماعية 91
أ-التاريخ 91

الفصل الرابع

العمارة والفنون

المبحث الأول: العمران 95

1-العمارة الدينية 96

أ-المسجد الجامع 96

ب-مسجد(مصلى) قصر المنار 97

2-العمارة المدنية 98

أ-قصر المنار 99

ب-قصر البحر 100

ج-قصر السلام 101

د-قصر الكوكب 102

3-العمارة العسكرية 103

أ-الأسوار 103

ب-الأبراج 105

المبحث الثاني: الفن 106

1-الهندسة المعمارية 107

أ-المدنية 107

ب-العسكرية 108
2-الزخرفة 108
أ-الزخرفة الهندسية 108
ب-الزخرفة النباتية 109
ج-الزخرفة الكتابية 109
3-الخزف والفخار 110
4-صناعة التعدين 114
أ-صناعة الأسلحة 115
ب-صناعة التحف النحاسية والبرونزية 115
ج-الحلي وأدوات الزينة 116
5-صناعة الزجاج 116
6-صناعة الخشب 117
7-الموسيقى 117
المبحث الثالث: أثر الحضارة الحمادية 118
1-الأثر الفني والمعماري 118
2-الأثر العلمي والثقافي 119
خاتمة 122

الملاحق 125
البيبليوغرافيا. 133
الفهارس 148
فهرس الأعلام 149
فهرس البلدان 150
فهرس القبائل 152
فهرس الموضوعات 153